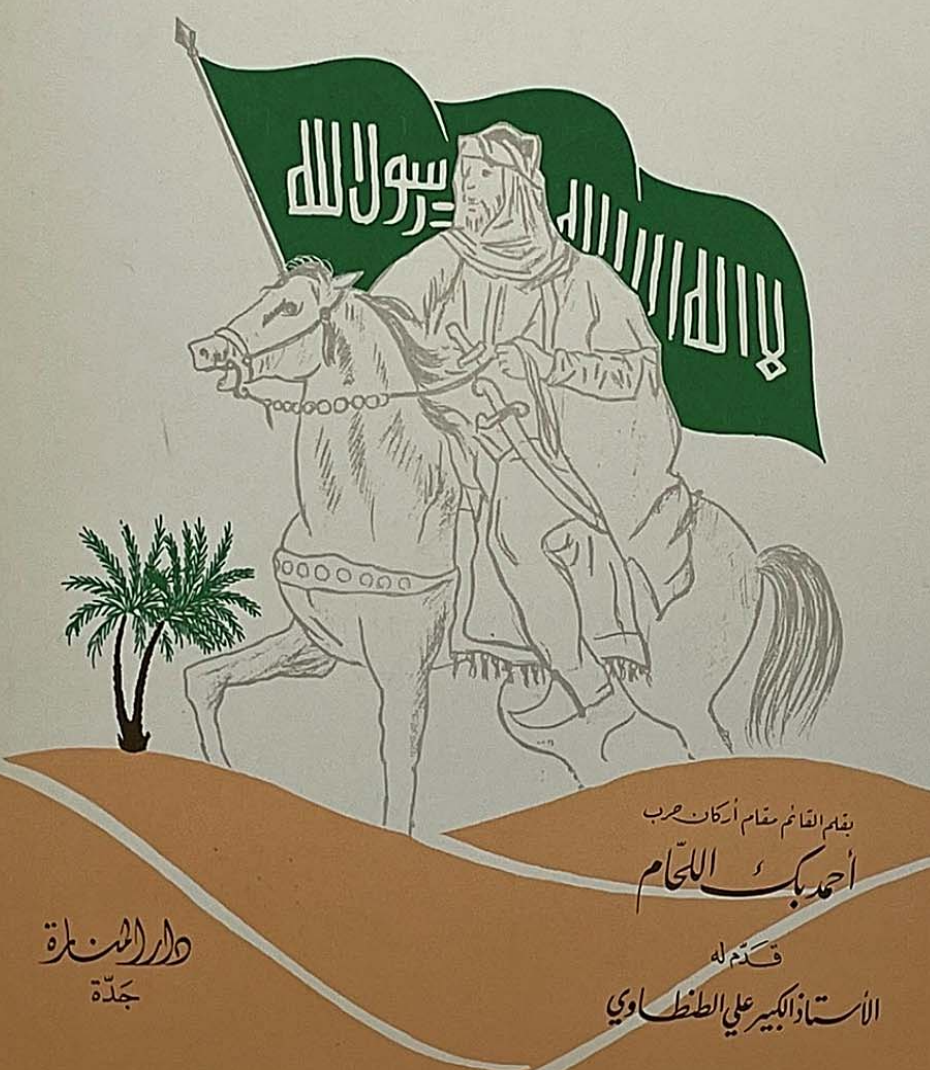
عبقرية
خالد بن الوليد العسكرية



بقلم القائم مقام أركان حرب

أحمد بك اللحام

قدم له

الأستاذ الكبير علي الطنطاوي

دار المنارة

جدة

عبقرية خالد بن الوليد العسكرية

بقلم القائم مقام أركان حرب

أحمد بك اللحام

قدم له

الأستاذ الكبير علي الطنطاوي

دار المنارة

جدة

إهداء

إلى الجندي المسلم
وإلى كل من جاهد
تحت راية "لا إله إلا الله
محمد رسول الله"

الناشر

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار المنارة
للنشر والتوزيع جدة - هاتف: ٦٦٠٣٢٣٨ - ٦٦٠٣٦٥٢ - تلكس: ٤٠٣٠٦٧
ص. ب.: ٢١٤٣١/١٢٥٠

مقـــدّمة

بقلم الأستاذ الكبير علي الطّنطاوي

اليوم هو ابن الأمس، وأبو الغد، وحاضر الأمةِ وليدُ ماضيها وهو الذي يلد مستقبلها. والأمم التي ليس لها تاريخ، تختـرع لنفسها تاريخاً، لأنه لا بدّ من التاريخ.

هؤلاء هم اليهود، عادوا لينبشوا أمجاداً عاشوها قبل ثلاثةِ آلافِ سنة، أمجاد ما هي من صنعهم، وليس لهم فيها يدان، فإذا اعتزّوا بموسى وسليمان، فإن مجد موسى وسليمان لا يدلّ على عبقريتهم، لأنه مدد من اللّه.

اخترعوا تـاريخاً، لأن الأمـةَ لا تعيش بلا تـاريخ، وأعـداؤنا اصطلحوا على أن يطمسوا صفحةَ تاريخنا من تاريخ الحضارة الإنسانية. ففي كلياتِ العلوم يُقرئون الطلاب تاريخ العلوم من أيام اليونان والرومان ثم يتخطّون ما فعلنا نحن وينتقلون رأساً إلى عهد النهضة الأوروبية، وفي الكليات العسكرية يتخطّون عمداً صفحة أمجادنا مع أنها أروع صفحة في تاريخ الأمجاد العسكرية. وأنا رجلٌ مـولع من صغـري بالتاريخ. أقرأ كل ما يقع تحت يدي من كتبه، وأستطيع أن أقول: إن المعجزة الكبرى في التاريخ العسكري للأمم كلها هي الفتح الإسلامي، وقد يقول قائل: إن الإسكندر فتح بلاداً ربما بلغت ما فتحه المسلمون، وكذلك صنع جنكيزخان وتيمورلنك ونابليون وهتلر، ولكن الفرق بين

هؤلاء جميعاً وبين الفتح الإسلامي : أن فتح هؤلاء القواد فتحٌ عسكريٌ يقوم على القهر، يبقىَ فيه غالب ومغلوب، يعيش الغالب يقظاً محترساً، والمغلوب متربصاً متحفزاً للأخذ بالثأر، أما الفتح الإسلامي فهو عجيب في طبيعته.

لننظر البلدان التي فتحناها. لقد فتحنا سورية، فهل تستطيع أن تميز في سوريا الآن أبناء الفاتحين الغالبين من أبناء أهل البلاد المغلوبين؟ ذلك أنه ما دخلَ الإسلام بلداً إلّا استقر فيها وبقي. . هذه أندونيسيا. لقد دخلها الإسلام من أقلَّ من أربعمئة سنة، دخلها في وقت قريب من دخول الاستعمار إليها؛ أما الاستعمار فقد ذهب إلى غير عودة، وأما الإسلام فقد بقي فيها وسيبقى إن شاء اللّه إلى يوم القيامة. ذلك لأن الفتح الإسلامي لم يكن فتحاً عسكرياً، وما فتح المسلمون البلاد ليأخذوا منها الغنائم ولا ليحكموا أهلها بل ليشاركوا أهلها في الخير الذي أنزله اللّه عليهم.

إن العالم اليوم تقوده قوتان كبيرتان، أميركا من هنا، وروسيا من هناك، فلو جاء شخص أميّ لا يقرأ ولا يكتب، ولم يدخل في حياته مدرسة، ولا زار المدن الكبيرة، بل نشأ في قرية بعيدةٍ متواريةٍ خلفَ رمال الصحراء، لو قال هذا الرجل: إن عندي دستوراً جديداً للبشرية، فتعالي يا أمريكا وتعالي يا روسيا، تعالي يا أمم الأرضِ جميعاً، لألقيه عليكم لتتبعوه وتعملوا به، وأنا أضمن لكم إنِ اتبعتموه السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة؛ فماذا يقولون عنه؟ يقولون: إنه مجنون، وقد قالها السفهاء من قريش عن محمد رسول اللّه عليه الصلاة والسلام، فما رأيكم إذا لم تمضِ على هذا الشخص وعلى دعوته ثلاثونَ سنة حتى حكم ثلث المسكونَ من هذه الكرة، وحتى أزاح إحدى الدولتين الكبيرتين وأزالها عن الوجود، وضعضع بنيان الأخرى حتى أخضعها ثم أزالها؟

هذا الذي صنعه محمد وخلفاء محمد صلى اللّه عليه وسلم.

وهذه هي قصة الفتح الإسلامي، الفتح العجيب، المعجزة التي تحققت على يد الجندي العربي المسلم والقائد العربي المسلم، هذا الجندي، الذي مشى من جزيرة العرب شرقاً إلى العراق وفارس وأفغانستان وإلى الهند، وأوغل فيها حتى بلغ الصين، ومشى من جهةِ المغرب إلى مصر وآخر إفريقية حتى وصل البحر فوقف عليه عقبة بن نافع بفرسه وقال: اللهمّ لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك..

ثم تخطَّوا البحر إلى إسبانيا ثم بلغوا قلب فرنسا، حتى جاء يوم كان فيه هذا البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية.

* * *

قد تقولون: إن الجنود قد يصلون اليوم إلى أبعد من ذلك. الجندي الأمريكي يأتي من أمريكا إلى كوريا. وأنا أقول: هذا صحيح، ولكنهم يأتون بالطيارات ويتنقلون بالسيارات، يأتي الجنديَّ غداؤه ساخناً، ويأكله قاعداً بالشوكة والسكين، أما الجندي العربي المسلم فكان يمشي على رجليه، وإن وجد دابةً تعاقب عليها عددٌ من الجنود: في بدر تعاقب رسول اللّه عليه الصلاة والسلام وعلي ورجل ثالث على ناقةٍ واحدة، يركب أحدهم ويمشي اثنان. إن في الجيوش اليوم مصلحة تموين ولم يكن في الجيش الإسلامي مصلحة تموين، كانوا يعدّون زادهم بأنفسهم، وما زادهم؟ تمرات يأكلها الجندي في اليوم كله ويعيش كذلك أياماً طوالاً، هذا الجندي الذي كان عَجَباً في صبره وكان عجباً في طاعته، وكان في إيثاره أعجب منه في طاعته وفي صبره، كان يؤلف بين الجنود المحبة والإيثار، ولا ينفع اجتماع الأجسام إذا لم تجتمع القلوب والنفوس.

أذكر لكم حادثة واحدة في معركة اليرموك: ذهبوا بعد المعركة يفتشون عن الجرحى، فوجدوا جريحاً يُحْتَضَر يريد جرعة ماء. وكانت

هذه الجرعة أثمن عنده من خزائن الأرض للإنسان الصحيح المعافى، فجاؤوه بها، فرأى زميلاً له جريحاً مثله يريد أن يشرب فأبعدها عن فمه وقدّمها إليه، وأعطاها الثاني لجريح ثالث؛ ومات الثالث قبل أن يصل إليه الماء، فعادوا للجريح الأول والثاني فوجدوهما قد ماتا وهما عَطِشان.

هذا الإيثار العجيب لا يمكن أن تلقى مثله إلّا في الجيش المسلم... والأمانة؟ تعلمون أن العرب كانوا يعيشون في فقر وفاقة، وعندما غنموا جواهر تاج كسرى، التي كانت أغلى وأثمن من جواهر التاج البريطاني، لم يمد جنديٌ يده إلى جوهرة منها قد تغنيه إلى أحفاد أحفاده. وعندما جاءت هذه الكنوز إلى عمر ونظر إليها، قال: إن قوماً أدّوا هذا لأمناء.

وكيف لا يكونون أمناء وقد رُبّوا في مدرسة محمد؟

قتيبة بن مسلم كان أعظمَ من مئة نابليون، كان عنده رجلُ أمين يجمع الغنائم ويقسمها، واسمه ابن وَأْل، قال له أحد القادة: سأرسل لك رسولاً ليأخذ حصة فرقتي من الغنائم لأوزعها عليهم، وانتظره ابن وألٍ فتأخر، ومرَّ جنديّ فظنه هو الرسول الذي جاء ليأخذ المال فدفعه إليه وقال خذهُ، وفي اليوم الثاني جاء القائد يطالب بحصة فرقته فقال له ابن وأل: سلمتها لرسولك، فقال: أنا لم أرسل أحداً، فاختلفا، وسمع الجندي بذلك فجاء بها برباطها لم يَفُكَّها، وكان فيها خمسمئة ألف.

خمسَمئة ألف!.. الجندي محتاج إلى خمسمئة منها، بل ربما كان محتاجاً إلى خمسين، منها فما مدّ يده إليها ولا حلَّ رباطها وأدّاها كما هي.

ذلك لأن الجنود كانوا يعملون للّه لا يبتغون جزاءً ولا وساماً.

كان مسلمة بن عبد الملك القائد الأموي يحاصر حصناً، وأعياهم حصاره، فاختار فرقة فدائية لاقتحامه، وتقدم رجل من تلك الفرقة تحت وابل من السهام والنار المنطلقة من كل جانب من جيوش العدو، معرضاً نفسه للخطر، حتى نقب نقباً (أي ثغر ثغرة) فدخل من هذا النقب الجنود، وفتح الحصن وكان النصر، واختفى ذلك الرجل، وسأل عنه مسلمة فلم يعرفه أحد. فجمع الجند ثم قال: أين صاحب النقب؟ استحلفه باللّٰه أن يأتي، فتقدم رجل مقنَّع لا تظهر منه إلا عيناه وقال: أنا صاحب النقب، وما جئت إلا لأنك استحلفتني، وأنا أسألك باللّٰه، ألاّ تسألني عن اسمي، وإذا عرفته فلا تخبر به أحداً لأني عملت ذلك لمن يقدر أن يعطيني أكثر مما تعطيني، فإن كان عندك مال أو جائزة فقد عملت الذي عملته للّٰه الذي يعطي أكثر مما عندك.

* * *

تسمعون بالثغور، وهي على حدود البلاد، يذهب إليها المتطوعون.

وفي أحد هذه الثغور كان قتال بين جيش من المسلمين وآخر من الروم. ودار القتال على طريقة المبارزة وخرج أحد أبطالِ الروم وطلب البراز، فخرج إليه مسلم فقتله الرومي، ثم برز إليه ثانٍ وثالث فقتلهم، ومرّ النهار على ذلك حتى استاء المسلمون، وفي اليوم التالي برز له من المسلمين فارس ملثَّم وما زال به يحاوله ويداوره حتى قتله؛ فهلّل المسلمون وكبّروا، وبدلاً من أن يتجه الفارس للصف حتى يستقبله الناس هرب من خلفهم وتوارى عن الأنظار، فتبعه أحد الجند وما زال به حتى عرفه، أفتدرون من كان ذلك الرجل؟ من كان ذلك الفارس البطل؟ إنه الإمام، العالم، صاحب أبي حنيفة، المحدِّث؛ عبدالله بن المبارك، الذي كان يحج سنة ويغزو سنة، وذلك أن علماء المسلمين كانوا يتطوعون

ويسابقون الجنود إلى الجهاد.

وأضرب مثلاً لقائد من قواد المسلمين لو أنْصَفه التاريخ لاعتبره واحداً من أعظم القواد... كان أعظم من هانيبال ومن الإسكندر هو خالد بن الوليد الذي تجلّت عبقريته في الدفاع وفي الهجوم. وعبقريته في الانسحاب لما انسحب من معركة مؤتة بثلاثة آلاف كانوا وسط مئة وخمسين ألفاً من الأعداء، لو أطبقوا عليهم لسحقوهم سحقاً، ولكن هذا القائد العبقري استطاع أن يَسُلَّهم من وسط المعركة سلاًّ. وإذا كان الحلفاء يفخرون بالانسحاب من دنكرك هذا الانسحاب الذي طبَّلوا له وزمروا واعتبروه حدثاً عظيماً، كان انسحاب مؤتة أعظم منه، لأن جيش المسلمين لم يخرج للقتال وإنما كان سرية استطلاع ما فيها إلا ثلاثةُ آلاف رجل، وهل يعقل أن يرسل رسول اللّه عليه الصلاة والسلام ثلاثة آلاف لمحاربة دولة الروم الشرقية (بيزنطة) ومعها عرب الغساسنة وغيرهم؟ فوجئت هذه السرية بجيش عظيم من الروم ومن العرب المتحالفين مع الروم، وكان عدد هذا الجيش كما يذكر المقلون المعتدلون من المؤرخين مئة ألف، ويقول الآخرون: أنه كان يضم أكثر من مئتي ألف، وتعاقب القادة المسلمون فاستشهدوا كما تعرفون، واستلم خالد القيادة فاستطاع أن ينجو بهم وأن يعيدهم سالمين إلى المدينة.

إن خالداً كان أعظم قواد التاريخ القديم، ومن عبقريات خالد هذه الرحلة التي انتقل فيها من العراق إلى الشام يخترق أرضاً قد انتشرت فيها جيوش الروم، أرضاً قَفْراً، ليس فيها جدول ماء، ولا غَدير تخلَّف عن المطر، ولا نبت أخضر، هذه الرحلة هي التي يتكلم عنها القائد العسكري أحمد اللحام في هذه المحاضرة التي أُقدمها لكم الآن. لقد اخترق فيها بادية الشام وجاء العدو من حيث لا يتصور أن يأتيه، مثل

هذه الحركة قرأتها في حرب قرطاجنة (الدولة الفينيقية) مع الروم بقيادة هانيبعل (أنيبال) إذ جاءهم من فوق جبال الألب ولم يتوقع الروم أن يأتيهم من ذلك الطريق، وأعاد القصة نفسها نابليون بعد ألفي سنة.

كان القائد المسلم لا تفاجئه مشكلة إلاّ أَسْعَفته عبقريته وأمدّه إيمانه بحل لهذه المشكلة فلا يفزع ولا يرتبك. وعندما وصل خالد وجد الروم يقاتلون على نظام التعبئة، والمسلمون يقاتلون عادة فرادى على طريقة الكرّ والفرّ، فلم يكن يحتاج إلاّ إلى مراقبة الروم في تعبئتهم حتى يستوعبها ويصنع مثلها ويعبىء الجيش الإسلامي تعبئة كانت هي الفاتحة لكل التعبئات التي جاءت بعدها.

ومن جملة المواقف التي فاجأت قادة المسلمين هجوم الفيلة يوم القادسية، الفِيَلة التي لم يعرفها العرب من قبل، ففزعت منها في اليوم الأول خيولهم وهربت، واضطرب الجيش الإسلامي لكن لم يَفْقد أعصابه، وأسعفت القادة عبقريتهم، وأمدّهم إيمانهم بخطة معاكسة، فجاؤوا بالجمال وبرقعوها ببراقع لها ألوان مختلفة وجعلوا فيها أجراساً، وفاجأوا بها خيل الفرس ففزعت منها كما فزعت بالأمس خيول المسلمين من فيلة الفرس.

وعندما كان هارون الرشيد في حربه مع البيزنطيين بقيادة نكفور، عقد معه معاهدة وانسحب هارون الرشيد عملاً بالمعاهدة، حتى إذا وصل إلى أوائل العراق، نقض الروم العهد، وخشي وزراء الرشيد من إخباره حتى جاء شاعر فتلطف وأخبره بما كان، بشعر قاله، فارتد هارون الرشيد إلى بلاد الروم من ساعته رغم الثلوج والشتاء وانتصر على الروم.

* * *

إن من أعظم الأسلحة التي اعتمد عليها القادة المسلمون في كافة العهود هو سلاح الكتمان. سَنَّ لهم ذلك رسول الله ﷺ يوم فتح مكة

وهم يعيشون في صحراء مفتوحة لا حدود لها، ومع ذلك، فقد اتخذ من الاحتياطات ما منع وصول أي خبر إلى قريش حتى فوجئوا بنيران الجيش الإسلامي على جبال مكة من جهاتها كلِّها، وكان الفتح.

قد تقولون إن ذلك من البديهيات لكنه عند كثير من الناس ليس بديهياً. ومن عرف منكم ما كان أيام حرب الـ ٦٧، حين كانت الإذاعات العربية تعلن عن مواقع جيوشها حتى تدلّ عليها اليهود فينزلوا بها بأسهم، أدرك أننا نخطىء حتى في البديهيات.

وبعد، فهل تظنون أن جميع معارك المسلمين كانت بالسيف والرمح فقط؟ لقد كانوا يستعملون أنواع الأسلحة عملاً بقول اللّه: ﴿ وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾. هَلْ تعرفون أنها كانت عندهم أسحة للحصار، منها ما يسمى بالدبابة، ومنها ما يدعى الكبش لنقب الأسوار، وفي حصار عكا كان الصليبيون يحاصرونها، فجاء المسلمون وضربوا حصاراً حول المحاصرين، وتجلّت في تلك الحرب فنون من المهارة ومن الحيل الحربية. جاء الصليبيون ببرج من ثلاثة أدوار كأنه عمارة عالية تمشي على دواليب، فوضعوه عند السور لاقتحامه، وحاول المسلمون إحراقه فلم ينجحوا، إذْ كان مغطى بجلود مدهونة بمادة لا تؤثر فيها النار، فجاء جندي إلى رئيس المهندسين العسكريين في جيش صلاح الدين، القائد الأمين والمهندس العظيم الذي افترى عليه الأدب فظلمه هو قراقوش، فقال له: إنني أستطيع أن أصنع لكم ناراً تحرق هذا البرج، فقبل منه ذلك، وأعطاه المواد التي طلبها، فلما وصلت إليه، ركَّب بعضها على بعض وصبَّها في قدور، وأحكم إغلاقها، فصارت مثل القنابل في هذه الأيام، وألقيت على ذلك البرج فانفجرت بدوي كالرعد واحترق البرج. هل تظنون أن المسلمين تركوه وقعدوا ينظرون إليه ويهتفون الهتافات الحماسية، وينشدون الأناشيد العسكرية؟ لا، بل

سحبوه بالحبال وبالكلاليب، واستفادوا مما كان فيه من قناطير الحديد.

ولا تعجبوا أن يستفيد القواد الكبار من عبقريات العامة ومن كفاءاتهم، فهذا صلاح الدين، انتبه هو وغيره من القادة إلى أن الجندي ليس الذي يقاتل في الميدان فقط، بل إن كل جندي في الميدان وراءه عشرة ينبغي أن يعملوا ليستطيع هو القتال. فحشد صلاح الدين ومن قبله نور الدين جميع الطاقات، بل لقد استفاد حتى من اللصوص، إذ أحضرهم وقال لهم: ألا تريدون أن تسرقوا؟ فذهبوا ينكرون ويتبرؤون، قال: إني أطلب منكم أن تسرقوا لي أنا، وأنا أدفع لكم، فهل تعرفون ما الذي كانوا يسرقونه؟

كانوا يسرقون قادة الصليبيين وممّن سرقوهم جوسلان أحد أبطالهم الكبار الذين دوّخوا المسلمين، تسلل إليه اللصوص وكمّموه بمُلاءة مخدرة، فلم يفق إلا وهو بين يدي صلاح الدين. هؤلاء القادة العظام من أمثال خالد وقتيبة وغيرهم ممَّن أهملهم التاريخ فلم يعطهم حقهم كالمهلب بن أبي صفرة، ذلك القائد الذي حارب الخوارج فوضع أسساً ثابتة لحرب العصابات. بل إن الخوارج أنفسهم كانوا بالنظرة العسكرية أعجوبة في إقدامهم وسرعة حركتهم، كان شبيب ينتقل من الكوفة إلى منتصف طريق البصرة في ليلة واحدة، ومن مواقف شبيب أنه كان أربعون من الخوارج من العرب الخلّص قد وقعوا في حصار جيش من ألفي مقاتل، فشكّل شبيب ومن معه، رأس حربة واستطاعوا اختراق الجيش والنجاة إلى الصحراء وإنقاذ المحصورين دون أن يمسّ أحد منهم.

* * *

إن القيادة العليا غالباً كانت بيد الخليفة، وهذا عمر بن الخطاب كان يدير ثلاث جبهات: واحدة في الشام، والثانية في العراق، والثالثة

في مصر، يديرها وهو في قلب المدينة ليس أمامه هاتف كهربي (الكتروني) ولا أي وسيلة من وسائل الاتصال التي نعرفها اليوم، ولا طائرات توصل الأخبار، وكان يقف على تفاصيل المعارك وأماكنها، فيكتب إلى قائده بأن يصعد إلى الجبل الفلاني، أو يقول له: استدر من هنا وهاجم من هناك. وفي كتابي (أخبار عمر) تفصيل واسع لهذا الإجمال.

وكان الحجاج يقول لقواده: صفوا لي مكان المعركة، فيرسلون إليه وصف المكان تفصيلاً، فكان يضع الخطة ويترك للقائد أن يتصرف بها.

فمن أين تخرج هؤلاء القادة؟ يوم القادسية كان قائد جيش الفرس رستم وكان عسكرياً مثقفاً مدرباً، درس الفن العسكري المعروف في زمانه، ودخل معارك كثيرة، وأراد عمر قائداً من العرب يقف في وجهه فنادى سعداً، وقال له: اذهب لمواجهة رستم.

لقد تخرّج هؤلاء القادة من جامعة مؤلفة من غرفة ونصف غرفة مظلمة، لا نافذة لها، تحت جبل الصفا في مكة، هي دار الأرقم بن أبي الأرقم، تخرجوا من (مدرسة محمد).

إن عمر لو لم يُسْلم، لما دخل صفحات التاريخ، ولم يكن له في هذه الدنيا أثر. ما الذي عمله قبل إسلامه؟ إنه كاد يرتكب أبشع جريمة في التاريخ لو تمّت. إنه يريد أن يقتل خاتم الأنبياء، يريد أن يطفىء نور اللّه الذي سطع للدنيا من رأس جبل حراء. كان يريد أن يقضي على الحضارة التي دِنًا بها التاريخ، ولكن ما هي إلا أن دخل على رسول اللّه ونطق بالشهادتين وأمضى بضعة أيام، حتى أصبح عمر الآخر. عمر الذي حكم دولة تضم إحدى عشرة دولة من دول اليوم، كان عمر فيها،

فوق أنه الحاكم، وزيراً للداخلية يضع القوانين الإدارية والتنظيمات، وكان وزيراً للمالية. . . إن ثلث الأنظمة المالية التي ترونها الآن في كتب الفقه هي من استنباط عمر، استنبطها من الكتاب والسنّة، وكان على هذا رئيس المحكمة، والقاضي فيها الذي يقضي بين الناس، وكان هو القائد العسكري، وكان هو رئيس البلدية يفتش على الموازين، وكان المحتسب يدور في الأسواق، وكان فوق هذا إذا جاءه البـريد من الجبهات العسكرية يدور على بيوت الجنود فيدق الباب على نسائهم، فيقول هذا كتاب من زوجك، فتقول المرأة: إنني لا أقرأ فاقرأه لي، فيقرأ أمير المؤمنين الكتاب للمرأة من وراء الباب، فتقول له اكتب لي جواباً. . فيكتب لها الجواب. وكان بعد ذلك يمشي في الليل يتفقد أحوال المسلمين فإذا وجد امرأة ليس عندها طعام لأطفالها، ذهب فجاء بكيس الطحين يحمله على ظهره، وأوقد النار بنفسه ينفخ فيها حتى يخرج الدخان من لحيته، فيطبخ لها، ثم يبكي بعد ذلك خشية أن يكون قد قصر في خدمة المسلمين.

* * *

بهذه الأخلاق يا سادة انتصر أجدادنا. إن القوة المعنوية لا ينكر أثرها حتى في هذا العصر، وإذا كنتم لا تقبلون هذا الكلام مني وتقولون أني رجل لا خبرة لي بالشؤون العسكرية ولا بأصول القيادة، وإذا رددتموها علي فهل تردّونها على القائد العبقري قاهر رومل ثعلب الصحراء أعني مونتغومري الذي كتب في مذكراته مبيناً أن القوة المعنوية هي أساس النصر، حتى في هذا العصر؟ كان المسلمون في المعارك كلها إلاَّ قليلاً منها أقل من عدوهم عَدداً وعُدداً، وكانوا ينتصرون، فلماذا لا ننتصرْ نحن اليوم؟ ما الذي ينقصنا حتى يغلبنا اليهود؟ هل ينقصنا العدد ونحن أكثر من اليهود عدداً؟ هل ينقصنا المال، ونحن أكثر منهم مالاً؟ إن ما في أيدي المسلمين جميعاً من المال أكثر مما في أيْدي اليهود. والعلماء

في العلوم العقلية والكونية من المسلمين أكثر من العلماء بها من اليهود. والسلاح الذي يملكه أو يستطيع أن يملكه المسلمون أكثر من السلاح الذي يملكه اليهود، فإذا كان لا ينقصنا العدد ولا ينقصنا المال ولا ينقصنا العلم ولا ينقصنا السلاح، فما الذي ينقصنا؟

ينقصنا الذي كَمُل لأجدادنا فكان هو عماد نصرهم وسبب ظفرهم: إنه الإيمان.

* * *

وبعد: فإن للتاريخ صفحات.. التاريخ السياسي، والتاريخ الاجتماعي،.. والتاريخ العلمي، والتاريخ الأدبي، والتاريخ العسكري، فهل أدى ضباطنا وقوادنا العسكريون حق الأمة عليهم بتدوين هذا التاريخ؟ أنا لا أعرف مَن كتب في تحليل المعارك التي خضناها تحليلاً عسكرياً إلّا طه باشا الهاشمي فيما كتبه عن حروب الردّة، وما كتبه اللواء محمود شيت خطاب وهو أقرب أن يُعَدَّ من التاريخ العام لا من التاريخ العسكري، ولعلّ من أجود ما كتب في هذا الباب، هذه المحاضرة، فإنني من يوم سمعتها قبل نحو ستين سنة أعجبت بها وتمنيت أن أسمع الكثير من أمثالها، وإنني إذ أقدمها للقرّاء أحسّ فخراً بها واعتزازاً.

وأنا أقول الآن، إننا ما انهزمنا في حزيران (يونيه) سنة سبع وستين، بل انهزمت فينا المبادىء المخالفة للإسلام، هزمت فينا الخلائق التي أخذناها من عدونا، هزم فينا خلق الانقسام، خلق التردّد والانحراف. على أن الهزائم لا تقتل الأمم، كل أمة في الدنيا تَغْلِب وتُغْلَب ولكن العاقبة لمن يثبت على حقه ويعاود المعركة من جديد. رسول الله ﷺ انهزمت جيوشه مرتين، ولكنه سرعان ما ردّ الهزيمة وحوّلها إلى نصر، كان عليه الصلاة والسلام متحلياً بالروح الرياضية،

فلا يطغيه الانتصار ولا تحطمه الهزيمة، بل يتخذ من المعركة درساً ينفعه في معركة أخرى.

بولانْدَة مُحيت من خريطة أوروبا عدة مرات وأُعيدت، فإذا كانت هذه النكبة قد حاقت بنا اليوم في فلسطين، فإني أُذكركم بواقع تاريخي، هو إن القدس التي احتلها اليهود من ربع قرن قد جاء عليها وقت شهدت فيه غَزواً أعظم، وواجهتها قوى أكبر. . . قوى أوروبا بأسرها التي جاءت في حملات كان في بعضها مليون جندي، ومليون جندي في تلك الأيام تعدل عشرةَ ملايين في أيامنا. كان جيش إحدى هذه الحملات، أوله في عكا وآخره عند أسوار القسطنطينية. لقد سيطرت هذه الجيوش على القدس أكثر من تسعين سنة ثم ردّها أبطال ثلاثة: نور الدين وصلاح الدين والملك الظاهر لما نشروا راية الإسلام التي لا تهزم، وضربوا بسيف محمد الذي لا يثلم فاصنعوا مثل ما صنعوا تنتصروا كما انتصروا. .

إن قيام دولة إسرائيل دليل على تلك البشارة التي بشَّرنا بها رسول اللَّه عليه الصلاة والسـلام بأننـا سنقتل اليهــود. كيف نقاتلهم وهم متفرقون؟ وهل يكون القتال إلَّا بين جيش وجيش؟ فلو لم ينجحوا في فلسطين ولم يقيموا دولة، فكيف يتم القتال بيننا وبينهم؟ كيف تتحقق البشارة وهم أوزاع متفرقون تحت كل كوكب؟ فلا تَشُكُّوا بأنفسكم؟ ولا ينقص يقينكم بوعْدِ ربكم؟ وثقوا أنكم إذا كنتم جنداً للَّه فإن جند اللَّه منصورٌ دائماً (وإن جندنا لهم الغالبون).

علي الطّنطاوي

مكة المكرمة: غرة المحرم ١٤٠٦ هـ.

المقـــدّمَة

إن لكل أمة من أمم الغرب، عدا تاريخها السياسي والمدني، تاريخاً عسكرياً تنحصر بحوثه في الأصول الحربية المتبعة في كل دور من أدوار حياة تلك الأمة، وفي حالة جيوشها والحروب المهمة التي خاضتها، والقوّاد الذين اشتهروا فيها. وما إلى ذلك من شؤونٍ لها علاقتها المباشرة بحالة تلك الأمة الجندية، ويُلخص من ذلك التاريخ دروس عملية يتلقاها الخلف عن السلف، ويتألف من مجموعها «الفن الحربي» الذي كاد يبلغ أسمى درجة الرقي في عصرنا الحاضر.

والتاريخ العسكري عند العرب، مع ما بلغته هذه الأمة من مدارج الحضارة في الزمن الغابر، لا يزال حلقةً مفقودةً، وإن الوقائع التي قام بها العرب ظلت مشوشةً غامضة، ذلك لأن مؤرخيهم اكتفوا بسردها كقصص وروايات مختلفة يكاد القارىء يضلّ بين سطورها، مع أنها لو تمحصت وتناولها البحث والتدقيق بصورة فنية لانجلى عنها الغموض، وظهر ما تحتويه من أسرار عسكرية. وتدبيرات فنية، إن لم تكن تفوق أمثالها في تاريخ الأمم فلا تنقص عنها خبرةً وعلماً ودقةً وخطورة، وإن من قوّاد العرب من هم أطول باعاً وأسرع سباقاً في ميدان الفن العسكري من أمثالهم من الأمم الأخرى. ومن هؤلاء القواد الذين أسسوا مجد العرب، وخلّدوا في التاريخ ذكراً لا ينمحي على كرّ الدهور،

الصحابي الجليل خالد بن الوليد المخزومي فاتح الشام الحقيقي، مذل دولة الرومان فيها. وهو ينتمي إلى قبيلة قريش، وتعلمون أن قريشاً تتشعب إلى بطون، ولكن من انتهى إليه الشرف عشرة أبطن، منها بنو مخزوم، وإليهم ينتسب خالد بن الوليد رضي اللّٰه عنه، وكان عزيزاً في الجاهلية كما كان عزيزاً في الإسلام، وكانت له (القبة)، أي كان أمين خزانة ما يجمع من التبرع، وكانت قريش تضرب قبةً يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش، وكان هو الرقيب المحافظ عليها، وكذلك كان من أمهر القوّاد في الجاهلية، كما كان من أعظم رجال العسكرية تدبيراً بعد إسلامه، فلقد كانت له في الجاهلية الأعنّة، أي إنه كان القائد الأعظم لفرسان قريش في جميع الحروب والغزوات، وحارب في الإسلام تحت قيادة رسول اللّٰه ﷺ، وأبدى من معجبات الحرب وخوارق البسالة ما دعا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أن يسميه سيف اللّٰه. ووسدت إليه في عهد الخليفة الأول قيادة جيش العراق، وتولى أمر فتح هذا القطر في بَداءة الأمر، ثم انتقل منه إلى القطر الشامي، يقود الجيش الإسلامي فيه، ويُجلي الروم عنه، ومحاضرتنا هذه تتناول أعمال ابن الوليد الحربية في الشام إلى حرب اليرموك، وتكشف عن الخطة المثلى التي سلكها في حركات الشام.

تمهيد

لا بدّ لنا قبل الشروع في شرح خطة خالد من أن نعرض مختصر الحوادث المتقدمة عليها، ونبيّن الأوضاع الحربية التي اتخذها كلٌّ من الفريقين المتحاربين في الديار الشامية، قبل أن يوافيها خالد بن الوليد بفرقته من العراق ويشرف على إدارة الحرب فيها.

تبدأ الحملات الحربية الجدية التي وجّهها الإسلام لفتح الشام والعراق من مطلع السنة الثالثة عشرة للهجرة النبوية، في عهد الخليفة الأول أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه، فبعد أن أنهى هذا الخليفة العظيم حروب الردّة وأعاد للإسلام شوكته ووطد ما كاد ينهار على إثر وفاة رسول اللّه ﷺ من دعائم نهضته، أخذ يفكر بتنفيذ فكرة صاحب الرسالة ﷺ، من نشر الدين الجديد، وتوحيد كلمة العرب، وإجلاءِ الأجانب عن ربوع الجزيرة العربية، وكانت الخطة الحربية التي اتخذها في بادىء الأمر تنحصر في التعرّض لدولة الفرس في العراق، ومهاجمة جيشها فيه، والاكتفاء أثناء ذلك بمراقبة الديار الشامية بفرق صغيرة ترابط على حدودها، وبتعبير آخر كان من رأيه اختيار خُطة الهجوم إزاء العراق، وخُطة الدفاع تجاه الشام، وليس معنى ذلك أن الخليفة أَبا بكر رضي اللّه عنه كان يفضل فتح العراق على فتح الشام، بل بالعكس كان يتطلع إلى فتح الشام أكثر من غيره ويقدّره حقّ قدره

ولقد قال: (لفتح قرية في الشام أفضل عندي من فتح بلد في العراق) غير أن المصاعب العظيمة التي كانت البعثات العسكرية السابقة تلاقيها أثناء حركاتها في أرض الشام، وقوة الدفاع وشدة البأس اللتين يعترف بهما العرب لبني الأصفر (الرومان)، واستلزام هذه الحروب معدات حربية زائدة وقوى فائقة. كل هذا كان من الأسباب التي حملت الخليفة المشار إليه على إيثاره فتح العراق، وإحراز الظفر أولاً على دولة الفرس المجوسية التي كانت حينذاك أضعف شأناً وأقل مقاومة من دولة الرومان، وبذلك يكون الجيش العربي قد غنم الكثير من المعدات الحربية وازداد بها قوةً واستعداداً، وصار من السهل عليه مهاجمةُ الرومانيين وقتالهم في الشام. وتطبيقاً لهذه الخطة أرسل خالد بن الوليد للاستيلاء على العراق في الوقت الذي عقد فيه لخالد بن سعيد بن العاص لواء على فرقة عسكرية وبعثه نحو الشام، وأمره في بادىء الأمر أن لا يتخطى حدود تيماء[1]، وأن يدعو من حوله من العرب للانضمام إليه، وأن لا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمر آخر. هذه خلاصة الخطة الحربية الأولى التي فكر بها الخليفة أبو بكر رضي اللّه عنه وشرع في تنفيذها. ولندع الآن الحركات العسكرية التي قام بها خالد بن الوليد في العراق، ولنتتبع الحركات التي وقعت تجاه الشام، مستعرضين التطورات التي طرأت على خطة الحرب الأصلية.

---

(١) تيماء هي الأرض الواقعة شرقاً لجنوبِ من تبوك.

حركات فرقة خالد بن سعيد بن العاص

سار هذا القائد على رأس فرقته حتى بلغ تَيماء، فنزل بها وشرع في نشر الدعوة بين القبائل المجاورة، وبثّ العيون والأرصاد نحو البلاد الشامية، يستطلع أحوالها ويلتقط أخبارها، سائـراً على الخطة التي رسمها له الخليفة. فبلغه في ما بلغه أن جيشاً رومانياً مؤلفاً من عدة فرق نظامية وقبائل عربية يقوده البطريق ماهان أو باهان «Le patric Baanes» يتأهب للإغارة على فرقته. فكتب بذلك إلى أبي بكر رضي اللّه عنه يستأمره في ما يفعل، فأمره بالزحف على هذا الجيش ومهاجمته إياه قبل أن يتم اجتماعه ويستكمل معداته، على شرط أن يحافظ دائماً على خط رجعته، وأن لا يتوغل كثيراً في حركات التقدم، كيلا يجعل فرقته هدفاً لتطويق العدو إياها وقطع طريق الرجعة عليها، فجاوز خالد بن سعيد بن العاص بفرقته تيماء مولياً وجهه شطر الشمال، حتى نزل أرض الزَّيزاء والقسطل[1]، فما إن شعر القائد الروماني باهان بتقدم الفرقة العربية نحوه حتى مشى إليها بما اجتمع له من جيشه، ووقعت بين الفريقين مصادمة عنيفة أبلى بها المجاهدون البلاء الحسن، فشتتوا الجيش الروماني ومنوه

---

(١) الزَّيْزَاء تقع على بعد عشرين كيلو متراً من شرقي مأدبة، والقسطل قريبة منها وكلتاهما اليوم مندثرة.

بالهزيمة الكاملة، فكتب القائد خالد بن سعيد إلى الخليفة يبشره بالظفر ويستنجده ويستأذنه في متابعة التقدم في أرض الشام مطارداً قوى العدو المنهزمة أمامه.

فأذن له الخليفة وأمدّه بالرجال، وكان فيهم من مشاهير الأمراء: ذو الكَلاع الحِمَيْري وعِكرمة بن أبي جهل والوليد بن عقبة بسراياهم. غير أن خالداً ما كاد يتلقى أمر الزحف وخبر إرسال النجدات من المدينة حتى تسرع بالتقدم من دون أن ينتظر وصول النجدات إليه، تدفعه لذلك نشوة الظفر الأول وسهولته، ويستهويه أمل النصر بجنده وحده، ومما زاد في اشتطاطه ودفع به إلى ملاحقة الجيش الروماني حتى مرج الصُّفَّر[1] أن القائد الروماني لجأ تجاهه إلى الخديعة، فأظهر الكسر مكيدةً، وأخذ ينسحب أمامه ويستدرجه رويداً رويداً إلى الداخل.

وجازت هذه الحيلة الحربية على القائد العربي فنسي وصية الخليفة له بالمحافظة في تقدمه على خط رجعته وعدم تعريض فرقته لحركة تطويقية من قبل الخصم. وما كادت هذه الفرقة العربية تجاوز البلقاء إلى حوران حتى داهمتها قوة العدو من ورائها وجناحها (وهي على الأغلب القوة الرومانية الموجهة من جهة فلسطين لمؤخرة الفرقة العربية) وفتكت بقسم عظيم منها، وكان فيمن استشهد من رجالها نجل القائد نفسه، ولو لم ينجدها الأمير عِكرمة أحد أمراء جيش النجدة في الوقت اللازم بسريّته وينقذها من الخطر المداهم لأتى العدو عليها. وعندما يئس القائد خالد بن سعيد من الظفر ترك عِكرمة مع سريته ردءاً لفرقته (أي قوةً احتياطيةً)، وقفل راجعاً مع فرقته المغلوبة تلقاء المدينة حتى نزل ذا المَرْوَة. ولما بلغ خبر هذه الهزيمة الخليفة أبا بكر رضي اللّه عنه أمر بعزل القائد خالد بن سعيد وكتب إليه الكتاب الآتي:

---

(١) السهل الواقع جنوب نهر الأعوج من شمال أرض حوران.

«أقم مكانك، فلعمري إنك مقدام مِحْجام، نجَّاء من الغمرات، لا تخوضها إلى حق ولا تصبر عليه».

ثم استخدمه كجندي عقاباً له على انهزامه، ومنعه من دخول المدينة لكيلا ينتشر خبر تلك الهزيمة بين الناس فيؤثر على قواهم المعنوية. ولم يدخل ذلك القائد المدينة إلا بعد وفاة أبي بكر رضي اللّٰه عنه في أول خلافة عمر رضي اللّٰه عنه، وهكذا كان يعاقب القواد في صدر الإسلام على خطئهم في التدبير ومخالفتهم لما رُسم لهم.

ثم أعلن أبو بكر رضي اللّٰه عنه النفير العام في الحجاز ونجد واليمن، وهيأ جيشاً عظيماً لغزو الشام، ومما سهل له تنفيذ هذه الفكرة الأوضاع الحربية في العراق، إذ كانت مساعدة جدّاً للجيش العربي، وكان قائد تلك الجبهة الأمير خالد بن الوليد رضي اللّٰه عنه يتقدم فيها ظافراً، ويُنزل بجيش الفرس الهزيمة تلو الهزيمة، ولذلك أَصبح في الإمكان نقل بعض القوى من هذه الجبهة إلى جبهة أخرى، ومن أجل ذلك عزم الخليفة على نقل حركات التعرض إلى جبهة الشام، وأخذ يبذل جهوده لحشد جيش عظيم في المدينة يبعثه إلى فتح الشام، وما كادت هذه الخطة الجديدة تقرر ويعلن النفير العام في المدينة حتى شرعت جموع المجاهدين تتوافد إليها من كل صوب وحَدب إلى أن احتشدت في «الجرف» الواقع على مقربةٍ منها، وقد تألف من مجموع القبائل القادمة جيش عرمرمٌ، فألّف الخليفة منه في البداءة ثلاث فرق ثم عزّزها برابعة. وكانت قوة كلٍّ من هذه الفرق تتراوح في أول الأمر بين الثلاثة آلاف وسبعة آلاف جلّهم فرسان، ويرأس هذه الفرق أمراء من خيرة القواد المحنكين الذين اختبروا الحروب ومارسوها وسبقت لهم فيها تجارب طويلة، وإليك بيان قوات هذه الفرق وأسماء قوّادها والأهداف الحربية المعينة لها:

الفرقة الأولى: قوتها من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ مجاهد؛ قائدها الأمير يزيد بن أبي سفيان، خط حركتها أي (طريق مسيرها): المدينة ـ تبوك ـ البلقاء، هدفها الأخير مدينة دمشق.

الفرقة الثانية: قوتها من ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ مجاهد، قائدها الأمير شُرَحبيل بن حسنة، خط حركتها: المدينة ـ تبوك ـ الأُرْدُن، هدفها الأخير بُصرى عاصمة حوران.

الفرقة الثالثة: قوتها من ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ مجاهد أيضاً، قائدها أبو عبيدة بن الجراح، خط حركتها: المدينة ـ تبوك ـ البلقاء، هدفها الأخير مدينة حمص.

الفرقة الرابعة: قوتها من ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ مجاهد، قائدها عمرو ابن العاص، خط حركتها المدينة ـ الوجه ـ العقبة (أيلة) «Aila» وتسمى هذه الطريق في ذاك العهد «المعرّقة»، وهدف هذه الفرقة الأخير فلسطين.

وتألفت ما عدا هذه الفرق فرقة احتياطية بقيادة الأمير عكرمة سيقت من وراء الجيش لتكون ردءاً له (أي احتياطاً عامّاً)، وكلما توارد المجاهدون على المدينة أرسلهم الخليفة تقوية لهذا الجيش، حتى بلغ رجاله أربعين ألفاً في حرب اليرموك الشهيرة.

حركات هذه الفرق:

غادرت الفرقة الأولى من هذا الجيش المدينة في أواخر العام الثاني عشر للهجرة (٦٣٤ م) ثم تبعتها الفرق الأخرى، ولم يطلع العام الثالث عشر إلا ومعظم وحدات هذا الجيش قد جاوزت الحدود الحجازية إلى بقاع الشام، فأخذت تتقدم فيها رويداً رويداً، ولم يكن لهذا الجيش في البداءة قائد عام يناط به توحيد القيادة وتنظيم الحركات العامة، فكل فرقة منه كانت مستقلةً عن الأخرى تعمل وحدها ضمن

المنطقة المخصصة لها. وما كان ليغرب عن ذهن الخليفة ملافاة المحذور الناشىء عن عدم تسمية قائدٍ عام لمجموع الجيش، لذلك جعلهم مكلفين بنجدة بعضهم بعضاً عند مسيس الحاجة وإن كانوا مستقلين بحركاتهم ضمن مناطقهم، فإذا اجتمع فرقتان أو أكثر لهذه الغاية في منطقة واحدة، فالأمير عليهم جميعاً قائد تلك المنطقة التي يقع فيها الاجتماع، فإذا فكر الإنسان في ترتيب هذا الجيش وانقسامه على الصورة المارّ ذكرها يتضح له أن الخطة الحربية التي كان العرب يسيرون عليها حتى تلك الساعة في غزو الشام ومحاربة الجيش الروماني، والتي كانت عبارة عن إرسال جيش صغير يجاوز الحدود الحجازية، وينازل الخصم والقبائل الموالية له حيثما وجدهم، ثم يقفل راجعاً ببعض الغنائم، قد طرأ عليها شيء مهم من التبديل والتعديل، ذلك لأن التجارب السابقة علّمت مجاهدي العرب: أولاً أنه لا قبل لجيشٍ صغير تنقصه المعدات الحربية الموجودة بكثرة في جيش خصمه بمنازلة هذا الجيش مجتمعاً وجهاً لوجه، لا سيما إذا كان هذا الخصم فائقاً عليه بالعَدد والعُدد وهو يحارب في قلب بلاده، وعلى مقربة من قواعد تموينه وتجهيزه، على خلاف ما هو عليه ذاك الجيش الصغير جيش العرب من بُعْد الديار وبطء النجدات، وخصومة أهل البلاد، على مثال ما وقع لجيش زيد بن حارثة رضي اللّه عنه في موقعة (مُؤْتة)، ولجيش خالد بن سعيد بن العاص في محاربة (مرج الصُفَّر)، وكانت نتيجتهما انهزام الجيش العربي.

وعلمتهم ثانياً أن من الصعوبة بمكان عظيم سَوْق جيش كبير من طريق واحدةٍ طويلة تمر في بادية قاحلة حارة، لا يجد فيها هذا الجيش ما يسدّ عوزه من القوت والماء والذخيرة، لا سيما في طريق تقطن حواليها قبائل مخاصمة تهاجم قوافله، تهدد دائماً أجنحته وخطوط

رجعته، وهكذا كان شأن الجيش الكبير جيش العسرة الذي قاده رسول الله ﷺ بنفسه، فإنه ما كاد يبلغ موقع تبوك حتى نهكت قواه من طول الطريق وبُعد الشقة وقلّة الميرة، واضطر إلى الرجوع دون أن يدرك الغاية الأساسية من سفره، قانعاً بمعاهدة موقتة ما عَتَم الطرف الروماني أن عبث بأحكامها[1].

وعلمتهم ثالثاً أن الهزيمة التي مُنيت بها فرقة خالد بن سعيد في حوران ترجع أسبابها خاصة إلى الحركة الالتفافية الموجهة لمؤخرة الفرقة العربية وجناحها من قِبَل قوات العدو الزاحفة من جهة فلسطين، لذلك قد رؤي من الضرورة الحربية أن لا يتوغل الجيش العربي في أرض البلقاء وحوران دون أن تُشْغَل القوى الرومانية المرابطة في فلسطين بقوة مخصوصة تهاجم هذا القطر في الوقت نفسه، وبناءً على هذه الملاحظة المهمة عهد الخليفة إلى فرقة عمرو بن العاص رضي الله عنه بمهمة إشغال فلسطين وتهديدها.

واعتباراً بما تقدم قسم الخليفة جيشه على المنوال السالف الذكر، أي قسمه فرقاً صغيرة وسيّرها من طرق مختلفة، والفرق التي كانت تسير على طريق واحدة فصل بينها بأيام، وهكذا وجهها إلى فتح الشام مكتفياً بإعطائها موجّهات عامة وأهدافاً نهائية، وهذه الأهداف هي كما ذكرنا: دمشق، حمص، بصرى، فلسطين، فتعيين الخليفة لهذه الأهداف البعيدة يدلنا على أنه ترك كل شيء لابتداع القواد الذاتي واستقلالهم الشخصي، ولا شك في

(١) الحق أن هذه الغزوة قد أدركت الغاية الأساسية منها، فقد كانت غايتها توجيه المجتمع المسلم توجيهاً إيجابياً لتنفيذ عموم الجهاد من أجل جعل رسالة الإسلام عامة، لذلك احتفل رسول الله بها احتفالاً عظيماً، فحشد لها جيشاً كبيراً استوعب أكثر الذين كانوا أهلاً لحمل راية الجهاد. (الناشر).

أن بُعد المسافة وفقدان وسائل الأخبار السريعة في ذلك العهد كانا من الأسباب الباعثة على اكتفاء الخليفة بأوامر عامة تعرب عن الأهداف القصوى فحسب، دون أن يحدد لها زمن التنفيذ ووجه العمل، ولولا ذلك لكان من الخطأ في أمر سوق الجيش أن يعين الخليفة وهو في مقام قائد عام، لجيشه أهدافاً نهائية قبل حدوث المعركة الفاصلة الأولى التي لا بدّ من وقوعها بين جيشه المهاجِم وجيش خصمه المهاجَم، والتي لا يفيد من دونها مطلقاً احتلال المدن والاستيلاء عليها، ولذلك كان من الأصول الحربية المتبعة حتى اليوم أن جميع حركات السوق الجيشية والترتيبات الحربية الأولية تجعل غرضها الأول المعركة الكبرى التي على نتائجها وحدها يتوقف تعيين الأهداف التالية والتدابير المقبلة.

وقد وقع الجيش العربي في مثل هذا الخطأ قبل ذلك، فإنه استولى على أكثر العواصم الشامية من دون أن ينازل في البداءة مجموع الجيش الروماني المدافع عنها، فيقهره في ميدان الحرب ويبطل مقاومته، ثم يمدّ يده للمدن فيحتلها الواحدة بعد الأخرى فيكون احتلاله إيّاها سهل المنال مضمون العاقبة، ولقد ورّط الجيش العربي في هذا الخطأ ما كان من أمر الجيش الرومي، إذ أنه لم يدخل في معركة فاصلة مع الجيش العربي على حدود البلاد السورية كما كان ينتظر منه، بل ترك محافظة الحدود إلى الحاميات (المسالح) الموجودة فيها، تعاونها القبائل العربية الموالية للرومانيين، وأخذ هو يحتشد في أنطاكية عاصمة الشام يومئذ، حيث اشتغل بتقوية نفسه واستكمال معدات هجومه، فكان ذلك من الأسباب التي ساقت الفرق العربية إلى احتلال المدن قبل التغلب على جيش الخصم، ولكن عندما شرع الجيش الروماني بحركاته الحربية إثر إتمام استحضاراته، اضطرت هذه الفرق إلى إخلاء ما احتلته من الأماكن بسرعة، منسحبة إلى الجنوب، لتستجمع قواها، ولتستعد لمقابلة خصمها. وهذه التجربة أكدت للجيش العربي أن الهدف الأساسي في

الحرب هو جيش العدو لا عواصم بلاده.

حركات الفرق الأربع:

ولنعد الآن إل ذكر حركة كلٍّ من الفرق الأربع التي كان يتألف من مجموعها الجيش العربي المهاجم للديار الشامية. اجتازت الفرقة الأولى من هذا الجيش الحدود الحجازية في أواخر العام الثاني عشر للهجرة (٦٢٤ م)، ودخلت أرض الشام مكتسحة قوى الحدود الرومانية التي زاد في عددها الخصم منذ موقعة مُؤتة الأولى، وكانت تسلك هذه الفرقة الطريق الواقعة شرقيّ وادي العربة، فعلمت أثناء مسيرها بوجود فرقة رومانية في جنوب فلسطين على مقربة من وادي العربة، تقدّر قوتها بثلاثة آلاف فارس، يقودها سرجيوس قائد منطقة غزة. وبما أن الفرقة العربية المخصصة لجبهة فلسطين لم تبلغ بعد هذا القطر فقد قرر قائد الفرقة الأولى يزيد بن أبي سفيان مهاجمة الفرقة الرومانية خوفاً من قطعها خط رجعته فيما إذا ثابر على التقدم نحو دمشق، وتأخرت فرقة ابن العاص عن وصولها لفلسطين ورأى أن يشغل قوة الخصم المذكورة، فرتب رتلاً بقيادة أبي أمامة الباهلي رضي اللّٰه عنه لمهاجمة هذه الفرقة الرومانية التي زحفت أيضاً نحو هذا الرتل، فتلاقى الفريقان في محل يقال له العربة[1] فدارت بينهما معركة دامية كان النصر فيها حليف أبي أمامة، وانهزمت الفرقة الرومانية باستقامة غزة، فطاردتها فرسان الفرقة العربية حتى لحقت بها بقرية داثن[2] Dathema أو Dathesmos حيث

---

(١) العربة وإن اختلف المؤرخون كثيراً في تعيين موقعها الصحيح فهي على أغلب الروايات وأصحها محل يقع بوادي العربة وفي منتصف المسافة بين موقع العقبة والساحل الجنوبي لبحر الميت ونرى في خريطة Baedeker اسم عين غمر في هذا المحل وهو ما يطابق أيضاً ما رواه البلاذُري والمقدسي في هذا الصدد.

(٢) داثن: قرية مندثرة تبعد عن غزة ١٢ ميلا.

أبادتها كلها، ولما أتمّ رتل أبي أمامة مهمته غادر فلسطين لاحقاً فرقته في شرقي وادي العربة، وكانت وقعة داثن في شهر ذي الحجة سنة ١٢ هجرية (شباط سنة ٦٣٤ م).

أما الفرقتان الثانية والثالثة فقد كانتا في هذه الأثناء تتقدمان من الجناح الأيمن للفرقة الأولى، فصادفت فرقة أبي عبيدة السالكةُ طريق الشوبك ـ الطفيلة قوةً للعدو في بلدة مآب فهاجمتها وهزمتها، فصالحها أهل البلدة ولم تلق هاتان الفرقتان مقاومة أخرى حتى نزلتا أرض حوران.

وأما الفرقة الرابعة التي زحفت عن طريق الساحل إلى العقبة، ومنها عن طريق وادي العربة إلى جنوب فلسطين فقد بلغت أرض الداروم[1] من دون أن تصادف أية مقاومة جدية من قبل العدو، وذلك لأن ظفر أبي أمامة الباهلي على القوى الرومانية الموكول إليها محافظة الحدود الفلسطينية مهد السبيل لتقدم هذه الفرقة من غير صعوبة ما، فأخذت هذه تتوغل في الأرض الفلسطينية وتقوم بحرب الإزعاج والعصابات فيها على شكل الفرق الأخرى المتوغلة في أرض الشام، واستمرت فرق الجيش العربي مدةً غير قصيرة تعمل متفرقة وفي مناطق واسعة بعيد بعضها عن بعض، وتزعج الجيش الروماني ولا تصطدم إلا مع قواته المنفردة فتغنم سلاحها ومعدّاتها، وكانت لا تهاجم قوات الجيش الروماني الكبيرة إلا نادراً حيث تجد الفرصة سانحة، مع عنايتها كل العناية بالمحافظة على خطوط رجعتها، كيلا تعرض نفسها للإحاطة والتطويق، وهذه الطريقة من أصول الحرب التي اتخذها العرب في مطلع نهضتهم ضد خصومهم الروم والفرس، والتي سار عليها من بعدهم غيرهم من الشعوب الضعيفة تجاه الأمم القوية المتغلبة على

(١) الداروم جنوب فلسطين وغربي بحر الميت.

بلادهم، المغتصبة حريتهم واستقلالهم، كانت ولم تزل ـ مع بعض التعديل بخطة المقاومة وطرز تنظيمها ـ من أهم الوسائل الآيلة إلى إضعاف قوى المسيطرين وإرهاقها، وإحلال شعور اليأس والقنوط في قلوب قادة جيوشهم وجنودهم، وفي التاريخ القديم والحديث أمثلة كثيرة على نجاح تلك الخطة مهما طال أمد تطبيقها، وإذا ما كتب لها الفشل والخذلان في حالةٍ من الأحوال وبيئة من البيئات فإنما كان ذلك لوهنٍ طرأ على عزائم القائمين بها فثبط من هممهم، أو نقصٍ ظهر في شعور التضحية الوطنية فدفع بهم إلى ظلمة اليأس والقنوط، ومن المعلوم أن استقلال الشعوب البلقانية في الزمن الأخير كان مديوناً للجهود الجبارة التي بذلتها تلك الشعوب في تأليف العصابات القومية وتقويتها بالمال والعتاد.

إن هذا النوع من الحروب الذي يسمّيه العرب حرب الإجهاد والإنهاك (Guerre d'usure) لجأ إليه العرب أوائل فتح الشام والعراق، واستعملوه مع كثيرٍ من الحكمة والسياسة من دون إرهاق أبناء جنسهم أهل البلاد وترويعهم وإيصال الأذى إليهم، فكانوا إذا أجهزوا على قوى العدو يجاملون السكان ويسايرون عواطفهم، فيستميلونهم ويتخذونهم عوناً لهم في نيل مآربهم، حتى إن كثيراً منهم كان يتطوع لخدمتهم، فيتجسس لهم على الجيش الروماني، ويطلعهم على عوراته ومناحي الضعف فيه، وشارك اليهود عربَ النصارى بذلك، فكانوا جميعاً يداً واحدةً في مساعدة جيش المجاهدين على خصمه الجيش الروماني، ولا ريب في أن سياسة الاضطهاد والظلم التي يتبعها المستعمر في حكم الشعوب الضعيفة تؤول إلى مثل هذه النتيجة من الضغينة، وتجعل تلك الشعوب تتحين الفرص للتألّب عليه والانقلاب ضده، ولقد أيقن عرب الشام بعد ما شهدوه من صدق العزيمة وعظم التضحية في جيش

المجاهدين بنجاح قضيتهم وبفوزهم على الرومان في نهاية الأمر، وكان من نتيجة ذلك أن دبّ الخوف والذعر في قلوب متطوعة العرب في الجيش الروماني، فضعفت مقاومتهم إزاء المجاهدين، ومالأهم منهم قسم غير قليل، حتى إنك لتجد أكثر مؤرخي الروم يعزون هزيمة جيشهم -وإن كان ذلك غير صحيح- إلى خيانة الجند العربي المستخدم فيه.

استمر الجيش العربي مدةً طويلة يعمل متفرقاً، ويقوم بحرب الإزعاج والمطاولة، ولقد تكللت أعماله هذه بكثير من النجاح غير المأمول، حتى إن فرقةً منه هي فرقة يزيد بن أبي سفيان رضي اللّه عنه وُفّقت للوصول إلى ضواحي دمشق، وضربت نطاقاً عسكرياً حولها، ومنعت القوى الرومانية التي فيها من الاتصال بأنطاكية عاصمة البلاد الشامية إذ ذاك، كما أن فرقة أبي عبيدة رضي اللّه عنه تمكنت من الدخول إلى مدينة حمص، وأجلَت الحامية الرومانية عنها، وأقامت الحكم العربي فيها مدة، غير أن هذا الاستيلاء السريع لم يدم طويلاً، لأن الجيش الروماني لم يدخل في المعركة الحاسمة ولم يُغلب بعد، والكافل الوحيد بفتح البلاد كما قدّمنا هو الظفر على جيش العدو وإجلاؤه لا الاستيلاء على مدنه وعواصمه. وكان الأجدر بالجيش العربي بدلاً من أن يتوغل في البلاد ويشغل قواه في الاستيلاء على المدن والقرى أن يقصد بادىء ذي بدء إلى الجيش الروماني فيوقع به ويبطل مقاومته، وعندها تستسلم المدن إليه بطبيعة الحال من دون كبير عناء، غير أن تراجع الجيش الروماني وتحصنه مدةً طويلة في أنطاكية جعل الجيش العربي يحوّل اهتمامه إلى فتح المدن والاستيلاء على مواقع العدو المخلاة، ويؤسّس حكمه العادل فيها كما سبق ذكره.

ومن الأسباب التي دعت الرومانيين لاختيار خُطة التراجع أولاً: أن

جيش الروم المرابط في الشام لم يكن مستعدّاً كل الاستعداد لمقابلة الجيش العربي على الحدود الحجازية بقوى فائقة، وأنه لم يكن في قدرته أن يلقي عليه درساً قاسياً في الحروب النظامية التي لا قِبَل بعدُ للعرب بتحمل وطأتها، وأن الرومانيين كانوا لا ينظرون إلى الاستيلاء العربي نظرة اكتراث، بل كانوا يحسبونها غزوات فجائية وقتية تنتهي وتزول بعد الحصول على شيء من الغنيمة العاجلة، شأنها في سابق الأزمان، لذلك فضّلوا التراجع من أمام الفرق العربية وفسحوا لها المجال للتوغل داخل البلاد، إذ كانوا يظنون أنهم إذا تداركوا أمرهم واستجمعوا قواهم داهموها متفرقةً وأبادوها، ونزعوا من أفكار العرب فكرة التحرّش ببني الأصفر، وكانوا يتوخون أيضاً من وراء هذه الخُطة ترك أهل الشام مدةً وحدهم تجاه الجيش العربي ليجوس خلال ديارهم فيستلب أموالهم، وبذلك ينفرونهم من العرب المسلمين، ويبغضونهم في الاتحاد معهم، فضلاً عن أنهم سيجعلونهم يعترفون بفضل الاحتلال الروماني وبالطُمأنينة التي ينعمون بها في ظله، فيبقون رازحين تحت شعور الاعتراف بالجميل له، ويقوى ارتباطهم وتعلقهم بحكمه مهما كان قاسياً جائراً. لكن قد خاب ما أمله الرومانيون من هذه الناحية، إذ اتضح لعرب الشام أن الجيش العربي الفاتح لم يكن جيش سلب ونهب، بل كان يرمي في مهاجمة الشام إلى هدَف سامٍ وغاية شريفة، وكان يحمل لأهل البلاد بشرى إنقاذهم ورَمز وحدتهم، وكانت قواده وجنوده مثالاً عالياً في كرامة النفس وشرف الخلق وحسن السيرة، ولَكم ندم الرومانيون على تركهم المجال واسعاً أمام الجيش العربي الذي وفّق بحسن معاملته وبالغ عدله أن يستميل أهل البلاد إلى قضيته، وأن يحببهم حكمه، وأن يجعلهم يؤثرونه على الحكم الروماني ويتعلقون به، وما كان أشدَّ تأثر أهل حمص وأسفهم عندما علموا بعزم القائد العربي على ترك مدينتهم والجلاء عنها، قصدَ الالتحاق بالجيش العربي المجتمع

باليرموك، وكيف لا يأسفون على ذلك الحكم العادل وقد ردّ لهم حاكم مدينتهم العربي قبل الذهاب ما كان قد أخذه منهم باسم الجزية قائلاً لهم: يا أهل حمص «قد شُغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم» ولقد أجابه أهل حمص: «لَولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغَشْم، ولَندفعنّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم» وكذلك فعل أهل سائر المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا: «إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنّا عليه، وإلا فإنّا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد».

لقد كان من العادة في الحروب القديمة، ولم يزل مع الأسف في الحروف الأخيرة أيضاً، أن الجيش المتراجع من بلاد خصمه يخرب كل ما فيها من وسائل الدفاع الثابتة، وينقل ما استطاع من الوسائل المتحركة القابلة للنقل، ويصادر المأكولات والملبوسات على الإطلاق، ويتلف كل ما لا يستطيع نقله، وتعلمون أن الجيش الروسي في حروبه مع نابليون الأول كان يُحرق حتى عواصم بلاده كي يمنع خصمه من الاستفادة منها. فإذا قارنّا بين هذه الأفعال التي ترتكبها الجيوش المتراجعة، حتى جيوش القرن العشرين بكل شدة وقسوة، وبين عمل القائد العربي في القرن السابع، الذي أعاد لأهل حمص ما أخذه منهم باسم الجزية طيبةً به نفسه ـ مع حاجته وبُعد بلاده ـ لأنه يعدّ ذلك لقاء الدفاع عنهم وهو غير قادر على حمايتهم لأنه مضطر إلى مغادرة بلدهم، نقول: إذا نحن قارنّا بين الأمرين رأينا الفرق الظاهر بين الحضارتين مما جعل منصفي الغرب أنفسهم بل أعظم أُدبائهم وكتّابهم يعترفون بعدل العرب الفاتحين وجعل فيلسوفهم الكبير غوستاف لوبون يقول تلك الكلمة المشهورة: «لم يشهد التاريخ فاتحاً أرحم من العرب» على أن المصادرات الخاصة والعامة التي كانت مباحة في القرون السابقة، والتي

لم يبق لها اليوم من مبرر لتعدّد الوسائل النقلية وسرعتها، وإمكان تموين الجيش المحتل من نفس بلاده بكل سهولة، ارتكبت مراراً وتكررت كثيراً في حروب القرون الأخيرة، حتى في الحرب العامة، وكان أبطالها مع الأسف من أعظم دول العالم مدنية ورقيّاً.

زحف الجيش الروماني من أنطاكية إلى حمص فدمشق فاليرموك:

لما كان الجيش العربي يتوغل في البلاد الشامية ويستولي على عواصمها كان الجيش الروماني يتجمع في أنطاكية تحت حماية حصون هذه العاصمة وقلاعها، وتأتيه النجدات من أطراف المملكة البيزنطية، وخاصةً من بلاد الأناضول منبع القوات البيزنطية ومبعثها، وموطن الشعب الأرمني المناصر للرومانيين ومسندهم في حروبهم مع الفرس والعرب منذ القديم؛ إلى أن بلغ ما احتشد من الجيش في أنطاكية ما يربو على مائتي ألف مقاتل، هذا ما عدا الجيش الثاني الذي حشدوه في فلسطين تجاه فرقة عمرو بن العاص، وما كاد الجيش الروماني يتم اجتماعه ويستكمل معدّاته حتى زحفت طلائعه شطر مدينة حمص، فدخلتها عَنوةً بعد أن أخلاها العرب، وانتقمت من أهلها شرّ انتقام. وكانت الخُطة الحربية التي اعتزم الجيش الروماني تطبيقها: مهاجمة الفرق العربية على انفراد وإبادتها الواحدة بعد الأخرى، مستفيداً من تفرقها وبُعد المسافات التي تفصل بينها، فلا تستطيع معها التآزر في الوقت المطلوب، وإنها لخطة ناجحة هذه التي نوى انتهاجها القائد الروماني، وكانت لا بدّ أن توقع في الجيش العربي شرّ مصيبة لو لم ينتبه لها قوّاد الفرق العربية، فإنهم فكروا بالخطة التي يجب اتباعها، وتراسلوا يستشير بعضهم بعضاً فكان الرأي الراجح رأي عمرو بن العاص رضي الله عنه فقد كتب إليهم أن الرأي لمثلنا الاجتماع، فإننا إذا اجتمعنا لا نغلب من قلة، وإن تفرقنا لا تقوم كل فرقة بمن استقبلها لكثرة عدوّنا.

وعملاً بهذا الرأي أخذ قواد فرق الجيش العربي يخلون الأماكن التي كانوا احتلوها قبل أن يُداهمهم جيش العدو، وقفلوا راجعين إلى الجنوب حيث بدأوا يجمعون قواهم المتفرقة ويلمّون شتاتهم، وينتظرون نجداتهم، وكانت المنطقة التي قرروا الانسحاب إليها والتجمع فيها جوار بصرى عاصمة حوران، فبلغتها الفرق الثلاث بكل انتظام، ودون أن تمكّن الجيش الروماني من تعويق حركاتها، وإلحاق الأذى بأقل قطعة من وحداتها.

وأما الفرقة الرابعة فقد انسحبت إلى غور فلسطين على أثر ورود النجدات الكبيرة إلى الجيش الروماني المقابل لها، والذي أخذ يهددها في أواسط فلسطين، وكان موقف الجيش العربي آنئذٍ من أشد المواقف خطراً وأحرجها: جيش روماني عظيم يهدده من الشمال من جهة دمشق، وآخر يقصد جناحه الأيسر من ناحية فلسطين، وبينه وبين الحجاز منبع نجداته ومدّخر مؤنته مسافات شاسعة، تقطنها قبائل بدوية لا يركن إلى موالاتها، ففي مثل هذا الظرف الحرج والموقف الخطير لا يمكن أن يتخذ قرار أصوب من الذي اتفق عليه قواد الفرق في الجيش العربي، لأننا إذا دقّقنا النظر في أوضاع الجيش العربي حينذاك نراه منتشراً في ضواحي الشام على جبهة طويلة تكاد تزيد على مائتي كيلومتر، وكل فرقة منه تعمل لنفسها دون أن توحد حركاتها مع الفرقة المجاورة لها، وليس لهذه الفرق المختلفة قائدٌ عامٌّ يدير حركاتها، وينظم شؤون اتصالاتها، فلو وُفِّق الجيش الروماني تجاه هذه الفرق لتطبيق خطة الهجوم الداخلية التي حاول اتخاذها لاستطاع بسهولة تمزيق وحدة الجيش العربي وإبادته فرقةً بعد فرقة، ولما مكّنه قطّ من الاجتماع، ولكن حركة كهذه يقتضي لها جيش سريع الحركة، وقائد محنك جريء، وأن يقابل ذلك في الجيش المخاصم بطء في الحركة، ووهن في القيادة.

فأما الجيش الروماني في ذلك العهد فقد كان بطيء الحركة، كثير الأحمال والأثقال، وهو أصلح إلى الدفاع منه إلى التعرض والهجوم، وكان من عادته مع العرب أن يؤثر الحرب داخل ممتلكاته، وبالقرب من قواعد تموينه وتجهيزه، ليهون عليه الفتك بهم بعيدين عن عواصم بلادهم، وأن يتجنب الحروب في الصحاري القاحلة التي لا قبل لجنده بتحمل حرّها وسلوك سُبُلها. ولذلك لم نره إبان حروب الفتح جاوز ولو مرة واحدة حدود الحجاز وأوغل في أرضها، أو تأثر السرايا التي كانت تزعج بغاراتها المتكررة الحدود وتباغت حُماتها. ومن يلاحظ حالة الجيش العربي من هذه الناحية في ذلك القرن يره على نقيض الجيش الروماني، سريع الحركة، خفيف الأثقال، يكاد لا يملك من وسائل النقل شيئاً مذكوراً، فهو يكتفي بالشيء القليل من أسباب المعيشة. ينتقل بسرعة البرق من ساحة إلى أُخرى، هيّن عليه شدّ الرحال من الحجاز إلى الشام، والانتقال ما بين جهتي الشام والعراق، فهذه المزايا الأساسية مضافاً إليها ما تجيش به صدور المجاهدين من شعور التضحية، كانت في الواقع سرّ انتصار العرب على جيشين عريقين في ممارسة الحروب، والتضلّع بدقيق فنونها، كالجيش الروماني والجيش الفارسي. ولنعد إلى سرد الوقائع:

كتب أبو عبيدة رضي اللّه عنه بقرار قوّاد الفرق المارّ ذكره إلى الخليفة أبي بكر رضي اللّه عنه فوافق عليه ورأى من اللازم اللازب أن ينجد الجيش الشامي بفرقة من الجيش العراقي، فكتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إلى الشام وقلده القيادة العامة لذاك الجيش وكتب إلى أبي عبيدة يخبره بذلك وهذا نص الكتاب:

قد ولّيت خالداً قتال العدو بالشام فلا تخالفه، واسمع له وأطع، فإني لم أبعثه عليك أن لا تكون عندي خيراً منه، ولكنني ظننت أن له

فطنةً في الحرب ليست لك. أراد اللّه تعالى بنا وبك خيراً والسلام.

وهذا نص كتاب القائد خالد بن الوليد الذي أرسله من العراق إلى أبي عبيدة في الشام بعد وصول أمر الخليفة إليه:

أتاني كتاب خليفة رسول اللّه يأمرني بالسير إلى الشام، وبالقيام على جندها، والتولّي لأمرها، واللّه ما طلبت ذلك قطّ ولا أردته إذ ولّيته، فأنت على حالك الذي كنت عليه، لا نعصيك ولا نخالفك، ولا نقطع دونك أمراً، فأنت سيد المسلمين، لا ننكر فضلك، ولا نستغني عن رأيك.

مسير خالد بن الوليد رضي اللّه عنه إلى الشام:

كان القائد خالد بن الوليد رضي اللّه عنه يقود حركات الجيش العربي في جبهة العراق حينما تلقى الأمر بخروجه بشطر من الجيش إلى الشام، وبترك قيادة الشطر الثاني إلى القائد المثنى بن حارثة الشيباني الذي عهد إليه بعده بإدارة الحركات العسكرية في جبهة العراق. لم يرق خالد بن الوليد هذا النقل المفاجىء، وكان يفضل أن يبقى في العراق ليتمّ فتحه، غير أنه كجندي مطيع امتثل الأمر فوراً وغادر ساحة العراق بفرقته البالغة نحو عشرة آلاف من الفرسان، اختارهم من نخبة جيش العراق، ومن المجاهدين الأبرار الذين صحبوا رسول اللّه ﷺ في غزواته، وشاركوا ابن الوليد في حروب الردّة وأبلوا البلاء الحسن.

سارت هذه الفرقة من الحِيرة في أول شهر صفر سنة ١٣ ومرت بعين التمر فلما بلغت قُراقر، أخذ القائد يفكر في الطريق التي توصله بأسرع ما يمكن إلى بلاد الشام، فكر رضي اللّه عنه مليّاً في قضية الطريق وتساءل كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم؟ فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين، فاستشار أصحابه في سلوك طريق: قُراقر ـ سُوى ـ أَرَك ـ تدمر، فأبوا أن يوافقوه عليه، لأن المسافة بين قُراقر وسُوى شاسعة تبلغ خمس ليال، وهي خالية من الماء، وإن

من الصعوبة بمكان اجتيازها حتى على الراكب الفرد، فكيف بفرقة خيّالة كبيرة يعوزها كثير من الماء؟ ونصحوا له كثيراً بأن لا يعرض فرقته ونفسه للخطر الأكيد باقتحامها.

هنا في هذا الموقف الخطير تظهر جليّاً قوة إرادة القائد العظيم ومَضاء عزيمته وتقديرُه الأوضاع الحربية حق التقدير، تلك الأوضاع التي لا تسمح بالتردد قطّ في أمر اختيار الطريق القصيرة الموصلة للهدف المطلوب، فوقف بين جنوده خطيباً مشجعاً، ومما قاله لهم: لا يختلفنّ هديكم، ولا يضعفنّ يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النيّة، والأجرَ على قدر الحسبة، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة اللّه تعالى له، واللّه إنْ لي بدٌّ من هذا، إنه قد أتتني من أمير المؤمنين عزمة بذلك. فما كان منهم عندئذ إلا أن أجابوه مطيعين قائلين: أنت رجل قد جمع اللّه لك الخير، فشأنَك. فأخذ يفكر في نقل الماء الضروري لفرقته، فلم يكتف بما حمل من الماء الكثير، بل عمد إلى تدبير آخر لم يَرْوِ لنا تاريخ الحرب مثله قطّ، وهو أنه عطّش قسماً كافياً من الرواحل حتى أجهدها العطش، ثم سقاها فأرواها حتى الشفة، ثم قطع مشافرها وكعمها لئلا تجترّ، وإيضاح ذلك أنه حمل الرواحل من الماء ظهراً وبطناً. ثم شرع في المسير في البادية ولم يكن في رجاله من يعرف الطريق سوى رجل يدعى رافع بن عَمِيرة، وكان قد مرّ مع والده من هذا الطريق قبل ذلك بثلاثين عاماً وهو غلام، فاكتفى القائد به على بُعد عهده بمعرفة الطريق، وكان يأتمّ بكوكب الصبح، جاعلاً إياه على حاجبه الأيمن، سائراً على هذا الشكل غرباً لشمال، يمكث في النهار ويسري في الليل، ويكتفي بالشيء اليسير من الماء، يسقي الجند من المحمول على ظهور الرواحل وينحر قسماً فقسماً من تلك الرواحل ويخرج ما في بطونها من الماء فيمزجه بألبانها ويسقي منه الخيل، حتى

بلغ مع فجر اليوم الخامس موقع سُوى، والظمأ يكاد يفتك بفرقته فتكاً، وخشي أن يفضحهم حرّ الشمس ويدركهم عندها الهلك، فنادى خالد رافعاً دليله ما عندك؟ فقال: خير، أدركتم الرِيَّ وأنتم على الماء، وشجعهم وهو متحير أرمد وقال: أيها الناس انظروا علمين كأنهما ثديان فأتوا عليهما. ولما بلغوا المكان الذي عرّفه لهم الدليل أخذوا يفتشون عن شجرة كان شاهدها فوق الماء، فما عثروا لها على أثر، واستولى عليهم اليأس فأخذوا ينبشون التراب هنا وهناك، حتى ظفروا بعد جهد جهيد بجذْم (أصل) شجرة زائلة، فحفروا تحتها فظهر لهم الماء المنشود، فارتووا منه فقال بعض شعرائهم:

لِلَّه عينا رافعٍ أنَّى اهتدى   فوّز من قُراقرٍ إلى سُوى
خمساً إذا ما سارها الجيش بكى   ما سارها قبلك إنسيٌّ يُرى

ثم غادروا سُوى إلى مُصَيَّخ بَهراء فقابلهم أهلها بالاعتداء، فهاجموهم وهزموهم، وبعد أن امتاروا من الغنائم التي أخذوها من هذه القبيلة توجهوا إلى أُرك فصالحهم أهلها، فتركوها إلى تدمر حيث اشتبكوا مع حاميتها وأهلها بقتال عنيف اضطروهم به إلى المصالحة وتأدية الجزية لهم، ومنها توجه القائد الكبير بفرقته إلى القريتين، فوقف في وجهه سكانها، فشنّ الغارة عليهم وهزمهم. ثم أتى حُوّارين[1] وكان شأنه مع أهلها شأنه مع أهل القريتين، وتابع مسيره نحو الجنوب، حتى قرب من ضواحي دمشق، وعندما بلغ موقع الثنية وقف على هضابها حيث أطلّ على غوطة دمشق، وركز عليها راية رسول اللّه ﷺ وتسمى العُقاب مستبشراً بفتحها القريب. وبعد أن استراح هنيهةً في الثنية استأنف المسير حتى بلغ مرج راهط[2]، فشاهد بالقرب من ذلك المرج

(١) حُوّارين تبعد ثلاث ساعات عن القريتين وهي محل إقامة يزيد الأول.
(٢) مرج راهط هو المرج الواقع بين عذراء والهيجانة.

معسكراً لبني غسان عليه الحارث بن الأيهم يعمد لفرقته ليقطع الطريق عليها، ويمنعها من الالتحاق بالجيش العربي المنسحب إلى الجنوب، فما كان لابن الوليد بدٌّ من مهاجمة ذلك المعسكر، ليفتح طريقاً لفرقته نحو حوران، فأغار عليه، وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من صفر سنة **١٣** الموافق لـ **٢٤** نيسان سنة **٦٣٤** م يوم عيد الفصح عند آل غسان، وكانت النتيجة أنه تغلب على قوى الغسانيين المتجمعة، وشتت شملها، وغنم معدّاتها، وأكرهها على التقهقر نحو دمشق تحتمي بقلعتها، دون أن تجرؤ على ملاحقته من خلفه، وتعويق سير فرقته، فسار آمناً مطمئناً حتى بلغ أرض حوران، حيث التقى بفرق الجيش العربي على قناة بُصرى. وكانت بصرى في ذلك العهد مدينةً محصنةً تحميها قوة من الرومانيين والغسانيين. فهاجمها الجيش العربي تحت قيادة خالد بن الوليد رضي اللَّه عنه وفتحها، وضرب على أهلها الجزية، وهي أولى المدن التي فتحها ابن الوليد بالشام، ثم سار بجيشه نحو وادي اليرموك، حيث أتمّ حشده وأكمل معداته واتصل من هنالك بفرقة فلسطين.

وقبل أن نذكر المواقع الحربية التي خاض غمارها الجيش العربي بعد تجمعه وراء وادي اليرموك، نرى من المناسب إلقاء نظرة تحليلية حول تلك الأعمال التي قام بها القائد الكبير خالد بن الوليد رضي اللَّه عنه، منذ أن عُهد إليه بتولي القيادة العامة في جبهة الشام وترك جبهة العراق:

يتضح مما سبق أنه لما وسدت القيادة في الشام إلى خالد بن الوليد كان لا يعرف عن أوضاع الجيش العربي فيها سوى ما كتب إليه الخليفة به، وهو يتلخص بأن قوات الجيش الإسلامي متفرقة في مختلف مناطق الديار الشامية، وأنها تلقت الأوامر بالانسحاب إلى الجنوب تلقاء اليرموك، قبل أن يداهمها جيش الرومان ويفتك بها على الانفراد، وهي

متفرقة تفصل بينها مسافة شاسعة وهي بعيدة كل البعد عن حدود بلادها، وقواعد حركاتها «أس الحركات». هذا كل ما يعلمه القائد العام عن الأوضاع الحربية بالشام، وأول ما يرد على الخاطر عند تدقيق هذه الأوضاع أن يختار ابن الوليد أقصر الطرق وأسلمها، ليبلغ بفرقته محل التجمع العام الذي هو وادي اليرموك.

فإذا نظرنا إلى خريطة جزيرة العرب وأنعمنا النظر في الطرق ما بين الحيرة في العراق مجتمع فرقة ابن الوليد ومخرجها وبين وادي اليرموك هدف حركتها وموئلها، نجد هناك أربع طرق يختلف بعضها عن بعض في الاتجاه والامتداد وقابلية المرور:

الطريق الأولى: تسير مع نهر الفرات حتى دير الزور ومنه إلى تدمر - حمص - دمشق - بُصرى - وادي اليرموك.

الطريق الثانية: وهي الواقعة غربيَّ الفرات تمرّ من دُومة - عين التمر - قُراقر - سُوى - أَرَك - إلى تدمر - القريتين - حُوَّارين - الغوطة - بُصرى - اليرموك. وهذه هي التي سلكها خالد.

الطريق الثالثة: هي الطريق الثانية عينها حتى جوار خربة قصر الخباز الواقعة على نحو من ثلاثين كيلومتراً من موقع «كبيسة»، ومن ثم تفترق عنها حيث تتبع درب الساعي القديم مارّة من بئر الملّوصة، ومجتازةً بادية الشام إلى موقع أبي الشامات فضمير فعذراء فدمشق فبصرى فوادي اليرموك.

الطريق الرابعة: تبتدىء من الحِيرة، وتتجه نحو الجوف - وادي السرحان، وتؤدي تَوّاً إلى الزرقاء - البلقاء - وادي اليرموك.

فالطريق الأُولى وإن كانت تزيد على الثانية بضع عشرات من الكيلومترات من حيث الطول، غير أنها أسهل الطرق اجتيازاً، وأغزرها

ماءً وزاداً، وليس فيها من محذور إلا أنها الحدود الفاصلة بين دولتي الفرس والرومان، وأنها تحتوي بسبب ذلك على كثير من القلاع والأبراج المحصنة، وللرومانيين فيها حاميات كثيرة تمنع الجيش المخاصم من اجتيازها دون محاربات عديدة طويلة، وليس لفرقة ابن الوليد آنئذٍ من مصلحة بقبول هذه التضحية، لأنه كان يرمي قبل كل شيء إلى الوصول بأسرع ما يمكن إلى الشام، والالتحاق بالجيش العربي المرابط فيها.

أما الطريق الثانية وهي التي اختارها قائد الحملة فإنها وإن كانت أقصر من الأولى وأقل منها خطراً لخلوها من قلاع العدو ومسالحه، غير أنها تمرّ كما وصفنا من مفازة قاحلة طويلة، لا يسلم المغامر فيها من الخطر إلا بمعجزة من القدر أو بأعجوبة من عجائب الصدف، زد على ذلك أن في كلٍّ من الطريقين محذوراً آخر، هو أن كلًّا منهما يقطنه كثير من القبائل الموالية للرومان، ولا يمكن تجنب عدوانها دون بعض المعارك الدامية وإضاعة بعض الوقت، كما أنه يخشى على القوة المارّة عليها أن تقع في شباك الجيش الروماني الذي ينتظر أن يسعى لاقتناصها منفردة، ويحول بينها وبين التحاقها بالقسم الأعظم من جيشها.

وأما الطريق الثالثة: فإنها وإن كانت أقصر الطرق وأصلحها للمرور، لأنها الطريق المسلوكة في ذلك العهد لنقل البريد ما بين الشام والعراق، إلا أنها كانت محمية بكثير من القلاع والحصون الداخلية، ولذلك كان من الصعب اجتيازها، لا سيما وهي تنتهي بحصون قلعة دمشق الحصينة من جهة الشرق.

الطريق الرابعة: هي أسهل الطرق وأسلمها، وليس للمحاذير التي ذكرناها سالفاً أثر يذكر فيها، ولذلك يمكن للجيش الذي يسلكها أن يبلغ هدفه بكل طمأنينة وأمان ـ، إذن فما السر في ترجيح ابن الوليد للطريق الثانية على ما فيها من مهالك ومصاعب؟ هو ولا ريب جرأته النادرة،

واعتماده بعد اللّه تعالى على نفسه، وثقته بجنده وحبه أن يطأ أرض الشام في أقرب وقت مستطاع، ليصبح في إمكانه نجدة بعض القطع الأمامية التي لا يبعد أن يحيط بها العدو ويمنعها من الالتحاق بفرقها. وإن في قطعه هذه الطريق الصعبة، من (عين التمر) إلى (مرج راهط) بثمانية عشر يوماً ـ مع ما اضطر إلى خوضه من المعارك في أثنائها ـ لأكبر دليل على فكرته الصائبة هذه، وإلا فليس من مبرر قطّ لمجازفته تلك المجازفة التي قلّ ما يروي التاريخ لنا مثلها، والتي دفعت به لاقتحام أشد مفازة من مفازات الصحراء، ما سلكها قبله إلا النادر القليل، ثم تعريض فرقته وحدها للجيش الروماني والقبائل العربية[1] الكثيرة الموالية لهذا الجيش التي لو ظفرت به لما كان بلغ بفرقته اليرموك، ولما كان ذاك الظفر العظيم فيه، ولَتأخر فتح الشام أمداً طويلاً.

إن حركة السوق الجيشية هذه التي دبر خططها خالد بن الوليد وقام هو بتنفيذها تعدّ من أجلّ حركات السوق الجيشية وأدقّها، وتكفي وحدها لرفع مستوى صاحبها إلى مصافّ القواد العظام، وإذا أضفنا إليها الحركات الحربية الأخرى التي زين بها ابن الوليد صدر تاريخ العرب، فيحقّ للعرب أن تفاخر بهذا القائد الكبير كما تباهي الأمم الأخرى بكبار قوادها، أمثال آنيبال، والإسكندر الكبير، وفريدريك، ونابليون، وغيرهم.

وبمناسبة هذه الحركة الانتقالية السريعة التي قام بها خالد بين جبهتي العراق والشام، والتي مرّ بها مؤرخو العرب مرّاً من دون أن يقدّروها حقّ قدرها، ويحلّوها محلّها، أُريد أن أذكر حركة تاريخية من

(١) كان بعض هذه القبائل يدين بالنصرانية، وبعضها لا يزال على وثنيته، وكان رؤساؤها يتقاضون المرتبات من الروم.

نوعها شبيهة بها، كان بطلها نابليون الأول، وردت في تاريخ الحرب كمثال نادر على سرعة القرار وخفّة الحركة، وأطنب المحررون العسكريون في عظمتها كثيراً، وهم يتخذونها هي وأمثالها من أكبر الأدلة والبراهين على عبقرية نابليون الحربية، وانتقاله بسرعة البرق من ساحة قتال إلى أخرى، مما حدا ببعضهم إلى نعته بالشخص الذي يوجد في آنٍ واحد في أمكنة متعددة (Ubiquité).

وخلاصة هذه الحركة أن نابليون حينما كان متوغلاً عام ١٨٠٨ م داخل بلاد إسبانيا منهمكاً فيها بحرب طاحنة شنها على الشعب الإسباني لرفضه تتويج أخيه (جوزيف بونابارت) ملكاً على بلاده، اتفق مخاصموه من الدول المجاورة على مهاجمة فرنسا، منتهزين فرصة وجوده بعيداً عنها، فحشدوا جيوشهم بكل سرعة لهذا الغرض، فما إن شعر نابليون بذلك حتى ترك الحرب في جبهة الإسبان فوراً حيث لم يفز من شعبها المدافع بطائل يذكر، وقفل راجعاً إلى بلاده، ثم جاوزها إلى بلاد ألمانيا، وبعد أن قاتل العدو المحتشد في (آنيسبرغ) وهزمه، فتح لجيشه طريق (ويانة)، وقهر خصومه في محاربة (واغرام) الشهيرة. فهل كانت حركة خالد بن الوليد الحربية أقلّ شأناً مما ذكرنا؟ وهلاّ كانت تفوقها مدىً وجرأة وتفضلها عملاً ونتيجةً؟ فابن الوليد كان ظافراً على جيش الفرس في العراق، وقد أوشك أن يتم فتحه حين انتقل بسرعة البرق إلى جهة الشام، ونابليون لم يكن كذلك، وابن الوليد لم يمرّ في طريقه على بلاد عامرة كبلاد فرنسا وألمانيا التي مرّ عليها نابليون، بل كانت طريقه صحراء رملية تنهك الخفّ والحافر وتحفي الأقدام، ليس لسالكها ما يدفع عنه حرّ الشمس القاتل سوى رداء الظلام، ولا ما يسكن عطشه ويطفىء أُواره غير النزر من الماء المغلي الذي يحمله الفارس على راحلته، ومع ذلك كله فقد كان عرضةً للحروب من جَرّاء قبائل مسلحة

معادية، يمكن أن تداهمه من كل صوب، وعرضة لجيش نظامي كبير يملك جميع معدات القتال، ومن المحتمل الراجح أن يقطع عليه السبيل، فبرغم هذه المخاطر الطبيعية والمادية كلها اخترق خالد بن الوليد رضي اللّه عنه جبهة الرومان وبلغ هدفه وفاز أخيراً في اليرموك بذلك النصر المبين، الذي كانت نتيجته المباشرة أن افتتحت الشام، وجلا الرومان عنها إلى الأبد، وتأسس فيها ملك عظيم للعرب، لا تزال ذكراه ترفع الرأس وتحيي النفوس. فخليق وايْمُ اللّه بالعرب جميعاً أن يمجدوا خالد بن الوليد كأكبر قائد أنجبه الدهر لشعبهم، فهو بلا ريب مفخرة كبرى من مفاخر تاريخهم، وحق لهم أن يُدِلُّوا به على الأنام.

اجتماع الجيش العربي في وادي اليرموك:

سار خالد بن الوليد رضي اللّه عنه من بُصرى إلى وادي اليرموك فبلغه في شهر ربيع الأول سنة ١٣، فالتقى هناك بأقسام الجيش العربي كلها، ما عدا فرقة عمرو بن العاص، فقد كانت هذه الفرقة معدَّة لجبهة فلسطين، وقد دخلتها من وادي العربة، وتقدمت فيها شوطاً بعيداً، مكتسحةً حامياتها الصغيرة، حتى كادت تستولي على معظم أرضها، وخشي عند ذلك القيصر هرقل (هركليوس) أن تصبح البلاد المقدسة غنيمة باردة للعرب، فبعث إليها أخاه (ته اودور) ويسميه العرب (تذارق)، على رأس جيش روماني، فنزل هذا الجيش في أعالي فلسطين بموقع يقال له ثنية جِلّق[1]، وانضم إلى الجيش الروماني في ذلك الموقع حاميات فلسطين كافة، وهي التي كان يقودها جرجين (سرجيوس) قائد منطقة فلسطين، فبلغت قوة الروم المتجمعة هنالك

---

(١) بالنظر لمدققي علماء التاريخ من الغربيين يظن أن هذه الكلمة محرفة عن جنين Genaea في ذيل جبال سامرّا ومنتهى سهل أسدرلون Esdrélon.

زُهاء سبعين ألفاً، ومن ثَمَّ أخذ هذا الجيش بالزحف نحو فرقة ابن العاص ليُجليها عن فلسطين، وعلى أثر ذلك انسحبت هذه الفرقة نحو الأُرْدُنّ (غور فلسطين) كما بيناه آنفاً.

كانت الأوضاع الحربية لمّا هبط ابن الوليد وادي اليرموك على الشكل الآتي: جيشان كبيران للرومانيين يتأهبان لمقاتلة الجيش العربي، أحدهما يتقدم من الشمال وهو أكثرهما عدداً وعُدداً، وقد بلغ حينذاك مدينة حمص. والثاني جيش فلسطين المارّ ذكره، وهو يسير عن طريق جنين ـ نابلس متأثراً فرقة ابن العاص، ومهدداً أيضاً جناح الجيش العربي وخط رجعته في شرقي الأُرْدُنّ.

فكان قائد الجيش العربي في هذا الموقف بين أمرين: إما أن يأمر فرقة ابن العاص بالانسحاب إلى ما وراء الأُردن، والمرابطة على ضفته الشرقية، لتمنع جيش فلسطين من اجتيازه، وينتظر هو مع جنده جيش الرومان الشمالي في ما وراء وادي اليرموك لمنازلته في هذا الموقع السهل الدفاع، أعني إما أن يختار خطة دفاعية محضة تجاه الجيش، وذلك ما يلائمه لضعف قوته؛ وإما أن يترك الجيش الشمالي جانباً ويذهب بكل قواه لمحاربة جيش فلسطين أيّان وجده، فإذا ما قضى عليه وأمن شره عاد لمهاجمة الجيش الشمالي حيث بلغ، أو تربص به في الموضع الذي يختاره للدفاع. ولهاتين الخطتين فوائدهما ومحاذيرهما: فالخُطة الأولى، أي ترك فرقة ابن العاص على الضفة الشرقية من نهر الأُرْدُنّ ودفاعه هو في ما وراء اليرموك أو في موضع آخر، وإن كانت تحفظ له خط رجعته وتؤمنه فيما إذا غُلب تجاه الجيش الشمالي واضطر إلى الرجعة نحو قاعدة حركاته، لكنها في الوقت نفسه تحرمه من معونة فرقةٍ من فرقه لها قيمتها الكبرى في ميدان حرب فاصلة، لا سيما وإن جيشه قليل جدّاً بالنسبة لجيش خصمه. والخُطة الثانية وإن كان ليس لها

مثل هذا المحذور، غير أنها تحتاج إلى جرأة وسرعة عظيمتين، لأن الجيش العربي الذي جاز الأردن ودخل فلسطين إذا لم يفز سريعاً بطائل من جيش فلسطين وتأخر في الظفر عليه، أدركه عندها جيش العدو الشمالي من جناحه أو من ورائه، وأوقعه في مأزقٍ حرج ليس له منه مخلّص، وعند ذلك إما أن يستبسل حتى يهلك آخر جندي من جنده، أو يستأسر كله لعدوه. فمن أجل هذا الاحتمال غير المستبعد كانت الخطة الثانية خطرة جدّاً. ولكن ابن الوليد من القواد الذين لا يعرفون للخطر معنى، ولا يقيمون للاحتياطات الزائدة وزناً، ينتهج دائماً الخطة التي توصله إلى أعظم الظفر وأجلّه، غير مبالٍ بما يكتنفها من مهالك ومخاطر، شأنه في ذلك شأن القوّاد العظماء الذين بدّلوا مجرى التاريخ بجرأتهم النادرة، ولذلك نراه يتخذه الخطة الثانية من دون أدنى تردد، فيوعز إلى فرقة ابن العاص بالتقدم نحو جيش فلسطين لتستدرجه إلى جهتها، موهمةً إياه أنها تأتيه وحدها، ثم يسير هو بجيشه نحو الأُرْدُنّ معقباً فرقة ابن العاص التي أصبحت على هذه الصورة مقدمة الجيش العربي فيدركها وهي في أَجْنادَين[1] على مقربة من جيش فلسطين المرابط هناك، فيقع في ذلك المكان في **٢٨** جمادى الآخرة سنة **١٣** الموافق لـ **٣٠** تموز سنة **٦٣٤**م معركة هائلة بين الفريقين كانت الدائرة فيها على الروم.

وعلى أثر انكسار الجيش الروماني في أجنادين أخذت فلوله وبقايا

---

(١) اختلف مؤرخو العرب والعجم في تعيين موقع أجنادين الحقيقي، فمنهم من قال إنها بين الرملة وبيت جبرين، ومن قائل إنها من أعمال منطقة الأُرْدُنّ، ومنهم من يدّعي بأنها بين بيت جبرين واليرموك، وبعض المدققين من مؤرخي الغرب وصفها بأنها بين الرام وبين أريحا، والأغلب أنها على طريق القدس ـ أريحا، بالنظر للأوضاع الحربية.

السيوف منه تتقهقر إلى بيت المقدس (إيلياء)، حيث دخلتها مذعورةً وتحصنت في قلاعها الحصينة. إن ظفر الجيش العربي مقدمة لنجاح حركة السوق الجيشية الهجومية الداخلية، التي اعتزم تطبيقها ابن الوليد تجاه جيش خصمه المتفرق، ولطالما حاول تطبيقها القائد الروماني تجاه الجيش العربي الذي كان متفرقاً على جبهةٍ طويلة، ولكنها تقتضي كما أسلفنا قائداً جريئاً وجيشاً سريع الحركة، وهذا ما كان مفقوداً حينذاك في الجيش الروماني، ومتوفراً لدى الجيش العربي، فأخفق القائد الروماني، حيث وُفّق القائد العربي، لم يبق للجيش العربي وقد أمن بظفر أجنادين شرّ جيش فلسطين، إلاّ التوجه نحو الجيش الشمالي لخوض غمار المعركة الفاصلة معه، ولهذه الغاية ترك فلسطين وعبر الأُرْدُنّ مولياً وجهه شَطر اليرموك.

وضع الجيش الروماني الحربي قبل وقعة اليرموك:

المفهوم أن قائد جبهة فلسطين ته اودور (تذارق) بعد أن وجّه جيش فلسطين لفرقة ابن العاص بقيادة أحد أمرائه وهو ما سمّاه العرب تارة أرطبون[١] وأخرى قُبُقْلار، وتولى هو قيادة الجيش الكبير بالنيابة عن أخيه القيصر الذي ظل في حمص يترقب النتيجة ويمدّ الجيش الزاحف بالنجدات المتوالية، ولما بلغه هزيمة جيش فلسطين في موقعة أجنادَين أوعز إلى أخيه أن لا يتوغل كثيراً في الجنوب، بل يختار موقعاً دفاعيّاً حصيناً ينتظر فيه هجوم الجيش العربي، وعلى أثر ذلك اختار القائد الروماني وادي اليرموك كموضع دفاعي متين، حيث عبأ جيشه على ضفته اليمنى (الشمالية). وهذا الموقع الذي انتخبه قائد الجيش

(١) الأغلب أن هذه الكلمة محرّفة أو معربة عن كلمة Tribun ومعناها عند الرومانيين قائد فرقة.

الروماني للمدافعة بالنظر للأوضاع الحربية وللتشكلات الأرضية من أحسن المواضع الدفاعية وأمتنها: نهر الأُرْدُنّ وبحيرة طبرية عن يمينه يحميان جناحه الأيمن، ووادي اليرموك يحفظ له جبهته وقسماً كبيراً من جناحه الأيسر، وله من ورائه طرق أمينة تضمن له اتصالاته الدائمة بالداخل والساحل، بحيث تأتيه الذخائر والنجدات بكل سرعة وسهولة، والمحذور الوحيد في هذا الموضع هو إمكان إحاطته من جناحه الأيسر فيما إذا لم يكن هنالك قوات احتياطية زائدة تحول دون ذلك، وهذا متوفر جدّاً لدى الجيش الروماني، وبالإجمال فإن تصميم قائد الجيش الروماني على المدافعة بدلاً من التعرض، واختياره موضعاً كثير المَنْعة لمما يدل على ضعف معنوياته، وفرط تخوفه من خصمه، ولا شك في أن لهزيمة أجنادَين معظم الأثر في ذلك التضعضع الشائن.

ظل الجيش الروماني شهراً ونيفاً في هذا الموضع يستكمل أسباب دفاعه، ويرفع من معنويات جنده، غير تارك وسيلة من وسائل النصر إلاّ ومهد لها السبل، حتى لجأ إلى القسيسين والرهبان فأنزلهم بين الجنود، ودعاهم لاستثارة العواطف الدينية فيهم.

بلغ الجيش الروماني في اليرموك زهاء مائتي ألف بين فرق رومانية منظمة، وكتائب أرمنية متطوعة، وقبائل عربية موالية، كغسان وقضاعة وغيرهما، ولا ينقص هذا الجيش العرموم شيء من المعدات الحربية والذخائر والوسائل النقلية، على النقيض من خصمه الذي يكاد يكون كل ذلك معدوماً لديه.

وضع الجيش العربي الحربي في وادي اليرموك:

بلغ الجيش العربي كله جوار وادي اليرموك وعسكر في الناحية الجنوبية منه، وكان عدده أربعين وقيل خمسة وأربعين ألفاً من خيرة المجاهدين. وأخذ قائده خالد بن الوليد رضي اللَّه عنه يستعدّ للقتال،

ويستطلع حالة خصمه ويستكشف مواضعه، ويدقّق تشكيلاته وطراز تعبيته، فاتضح لابن الوليد بعد هذه الاستطلاعات أن لا قِبَل له بمحاربة خصمه على النمط الحربي المتبع في جيشه حتى تلك الساعة، واقتنع بأن لا بدّ له من تقسيم جيشه وترتيبه على طراز الجيش الروماني، فعمد إلى تنسيقه وفق الأصول الرومانية، فجعل يقسمه إلى كراديس(١)، فبلغ مجموع هذه الكراديس (٣٦: ٤٠) كُردُوساً، عيّن لكلٍّ منها قائداً، فكان من القواد ولدم عبد الرحمن وعمره ثمانية عشر عاماً، ومنهم شاعرا فرقته القعقاع بن عمرو وزياد بن حنظلة، ومنهم البطل المغوار عِكرمة بن أبي جهل رضي اللّه عنهم، ثم ألّف من هذه الكراديس فرقاً (من ١٠ إلى ٢٠ كُردُوساً) وجعل على كلٍّ منها قائداً كبيراً، وخصص للقلب (المركز) فرقةً قائدها أبو عبيدة بن الجراح، وللميمنة فرقة قائدها عمرو بن العاص وفيها شُرَحْبيل بن حسنة وهي أقوى الفرق وأعظمها، وللميسرة فرقة عليها يزيد بن أبي سفيان، وجعل مقره القلب، ولديه من هيئة أركان المقر (مقر القيادة العامة) أبو الدرداء قاضي الجيش، وأبو سفيان بن حرب القاصّ(٢)، وعبدالله بن مسعود مأمور الأقباض(٣)، وما عدا هذه التقسيمات أقام أمام جبهة جيشه طلائع(٤) وظف عليها قباث بن أَشْيَم.

والخلاصة أن ابن الوليد لم يشأ أن يزجّ جيشه في معركة حاسمة مع الجيش الروماني قبل أن يستعدّ لها ما استطاع، وكانت تعبئته الحربية تعبئة

---

(١) جمع كردوس محرّفة أو معربة عن كلمة Kortis الرومانية وهو بمثابة كتيبته.

(٢) خطيب الجيش الذي من أعماله حضُّ الجنود على الجهاد وتحريضهم على الثبات، وإيصال أخبار الحرب للفرق المحاربة وإطلاعها على كل ما يحدث في الفرق المجاورة لها وغير ذلك، وهي تعادل في يومنا وظائف الأركان الحربية في الجيوش الحديثة.

(٣) رئيس المِيرة وهو الذي يؤمن جميع حاجات الجيش ويجمع الغنائم الحربية ويوزعها.

(٤) خفراء الأمام.

جديدة للعرب، لم يعبئوا مثلها في ما سبق، وعلى ذلك يُعدّ خالد بن الوليد رضي اللّه عنه أول قائد مجدِّد في فن الحرب العربي، باقتباسه التعبئة من الخصم المرابط أمامه المتأهب لقتاله، ثم استعماله إيّاها فوراً دون أن يتاح لجيشه التدرب عليها مدة كافية مما يبرهن على نبوغه العظيم، وعبقريته الممتازة، وعلى مُرونة الجيش العربي وقابليته الحربية.

المفاوضات السياسية قبل المعركة:

لما أتمّ الجيش العربي ترتيباته، واستعدّ لمهاجمة خصمه، أخذ يفاوضه ويعرض عليه شروط صلحه، وهي حسب القاعدة المتبعة في ذلك العهد: إما الدخول في الإسلام، وإما أداء الجزية، ومعناه الخضوع لسلطان خليفة المسلمين. ومما يلفت النظر ما نقله لنا التاريخ عن حالة المفاوضين العرب، وكيف كانت مقابلتهم للقائد الروماني: فقد ذكر أنه لما وصل المفاوضون وعليهم أبو عبيدة بن الجراح معسكر الرومان أدخلوهم إلى سُرادق من سُرادقات القيادة العامة، مصنوع من الديباج مفروش بأفخر المقاعد الحريرية، فوقف المفاوضون في باحته دون أن يجلسوا، مبدين عذرهم بأن دينهم لا يسمح لهم بافتراش الحرير، وطلبوا أن يبرز لهم القائد إلى فرش ممهدة فوق التراب.

والظاهر أن القائد الروماني كان يرمي من وراء مقابلة المفاوضين العرب في ذلك السُرادق الفخم إلى بهر أبصارهم، والتأثير على معنوياتهم بأن يريهم آثار الغنى ومظاهر الأُبّهة، فيقدّروا عظمة الدولة البيزنطية حقّ قدرها، ويَكفُّوا عن التحرش بها، ويقفلوا راجعين إلى بلادهم، مكتفين بما ينالونه من الهبات الثمينة والهدايا الجزيلة، وكان القيصر هرقل مع خصومه العرب أميل إلى سياسة البذل والسخاء منه إلى سياسة الشدة والإرهاب، وكان يفضل إعطاءهم نصف حاصلات سورية

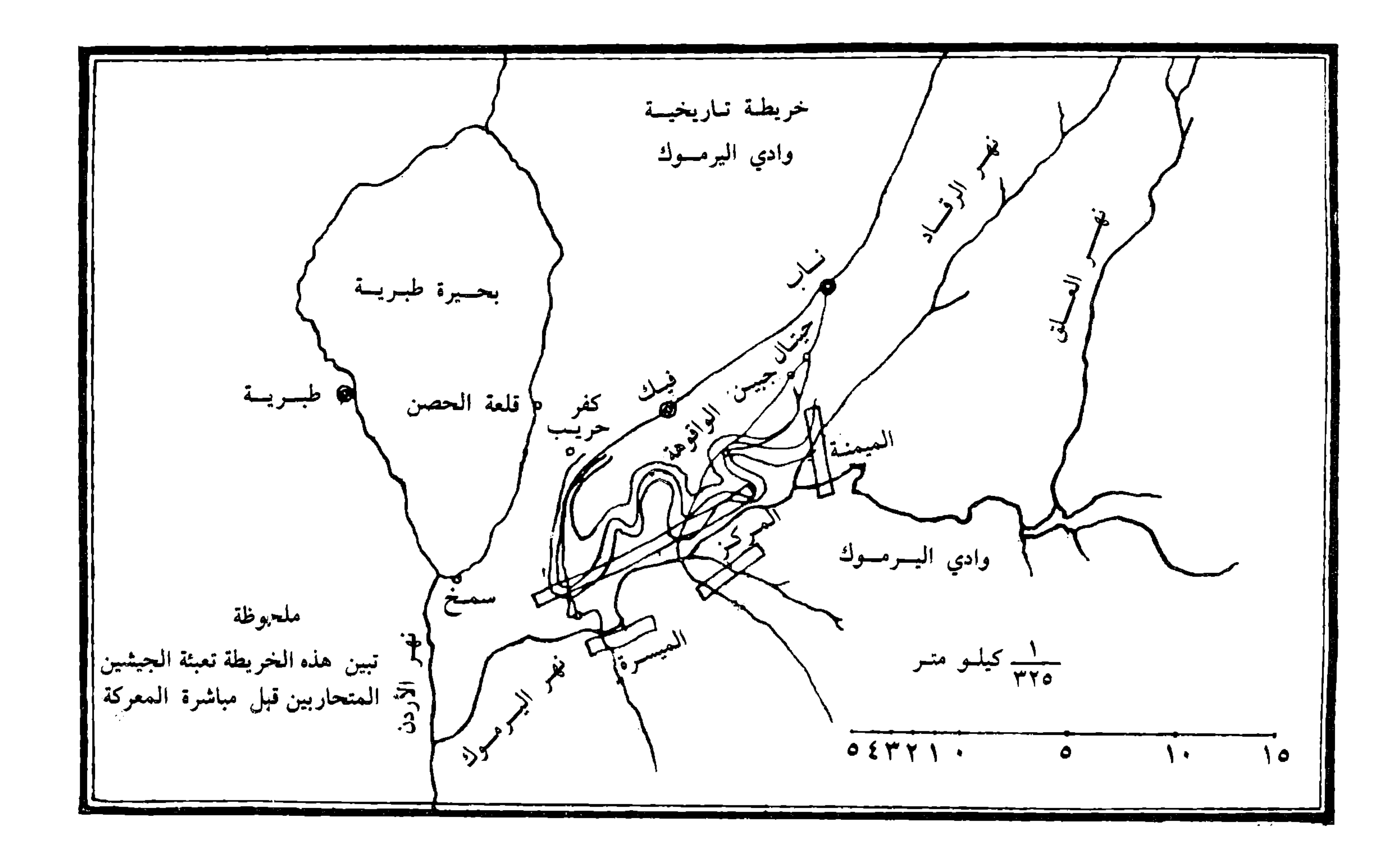
على محاربتهم وتعريض البلاد الشامية لاستيلائهم، لذلك ليس من المستبعد أن يسعى القائد الروماني لإغرائهم بشتى الوسائل، ولكن المفاوضين العرب خيبوا آماله بصلابة عودهم ومتانة مبدئهم، فأبوا حتى مباشرة المفاوضة تحت ظلال الترف، وفي نعمة الرفاهة، نابذين بذلك مظاهر تلك العظمة الفارغة، ومشاهد ذلك العز والجلال.

زحف الجيش العربي:

لم تنجلِ المفاوضة عن اتفاق، لأن ما يطلبه الجيش العربي من خصمه لا يتفق قطّ مع مكانة الدولة البيزنطية ومقاصدها الاستعمارية. وما كاد يعود المفاوضون إلى معسكرهم حتى دعا ابن الوليد قواد الكتائب جميعاً ليبلغهم أوامره بالزحف ومهاجمة العدو، وخطب فيهم مشجعاً حاثّاً فمما قاله: هذا يوم من أيام اللّه لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي. أخلصوا جهادكم، وأريدو اللّه بعملكم. هلمّوا فإن هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردّهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها. ثم أمرهم بالتقدم نحو مواضع العدو على الترتيب الآتي:

فرقة القلب تواجه قلب العدو (أي مركز قواته).
فرقة الميسرة تقابل جناح العدو الأيمن.
فرقة الميمنة تطوق جناحه الأيسر.

وحين بلوغ الجيش مواضع القتال واستعداده لشن الغارة دعا ابن الوليد المقداد لتلاوة سورة الأنفال، عملاً بسنّة رسول اللّه ﷺ، حيث كان يتلوها عليه الصلاة والسلام قبل الشروع في القتال، فتلاها المقداد رضي اللّه عنه بصوت شجيّ أثار العواطف، وهيج النفوس، وحبّب إليها مصير الشهداء في جنة الخلد والنعيم.



خريطة تاريخية
وادي اليرموك
بحيرة طبرية
طبرية
قلعة الحصن
كفر حريب
فيك
نابر
جيتال جبين الواقوصة
نهر الرقاد
نهر العلان
الميمنة
المركز
الميسرة
وادي اليرموك
سمخ
نهر الأردن
نهر اليرموك
ملحوظة
تبين هذه الخريطة تعبئة الجيشين
المتحاربين قبل مباشرة المعركة
$\frac{1}{325}$ كيلو متر
٥ ٤ ٣ ٢ ١ ٠ ٥ ١٠ ١٥

وكان لترتيبات التعبئة التي اتخذها القائد العام للجيش العربي أثرها الفعّال في إخراج الرومانيين من مواضعهم الدفاعية، واضطرارهم إلى منازلة الجيش العربي بالعراء، ضمن وادي اليرموك، لأنهم خشوا سوء العقبى من الحركة الالتفافية التي قامت بها فرقة عمرو بن العاص نحو جناحهم الأيسر، والتي كانت تهددهم بالتطويق والحصار، وكان قائد الفرقة عمرو على صواب حين قال لجنده وهو تجاه الجناح الروماني: أبشروا حُصرت والله الروم، وقلّ ما جاء محصور بخير.

خروج الجيش الروماني من مواضعه الدفاعية ومباشرته القتال:

خرج الجيش الروماني من مواضعه الدفاعية وعليه قائده ته أودور (تذارق)، وفي مقدمته البطريق (Patrice) جرجيوس (جَرجَه) وعلى مُجنِّبتيه (جناحيه) القائدان باهان والدُّراقص، ولما شاهد العرب الجيش الروماني على هيئته المهيبة وقوته الجسيمة طرأ على بعض أفراده شيء من الوهن مما حدا بأحدهم إلى أن يقول لابن الوليد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فأجابه فوراً: ما أقل الروم وأكثر المسلمين! إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لَوددت أن الأشقر (يعني فرسه) براءٌ من توجّيه وأنهم أضعفوا في العدد. فأكرم به من قائدٍ شجاع يعرف كيف يحيي ميت الرجاء في ضعفاء النفوس، ولقد أدرك ما بمخاطبه من وَهن وخَوَر في العزيمة ويأس من الظفر، فشجعه وأفهمه بأن الكثرة في الجيوش المحاربة ثانوية بالنسبة للقيمة المعنوية التي هي المعيار الحقيقي في تقدير قوة المتحاربين.

ولما دنا الجيشان بعضهما من بعض، وحانت ساعة النزال، أمر خالد بن الوليد عِكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو وهما قائدا كُرودسين في القلب أن ينشبا القتال، فصدعا بالأمر مرتجزين الشعر على

عادة العرب في حروبهم، ولم تمضِ برهة حتى اشتبك الفريقان، وتطارد الفرسان، وكل كُردوس من كراديس العرب يقابله خمسة أمثاله بل أكثر من كراديس الرومان، فأبلى المجاهدون البلاء الحسن، لكن كثرة أعدائهم وتفوقهم في المعدات الحربية أجهداهم كثيراً، حتى اضطر بعض الصفوف إلى التقهقر أمام حملات مهاجميها، وفرت قبائل العرب التي التحقت بالجيش الإسلامي بالشام من لخم وجُذام، تاركة ميدان المحاربة خيفة أن ينتصر الجيش الروماني على المسلمين، فيبقوا هم وقبائلهم عرضةً لانتقام حكام الرومان وغضبهم، وكانت ساعة رهيبة خشي العرب فيها ضياع آمالهم، ولقد دعا حرج الموقف وتراجع بعض الصفوف نساء المجاهدين إلى خوض غمار الهيجاء، فانبرى الكثيرات منهنّ يقاتلن قتال الأبطال، وكانت بينهنّ جُويرية بنت أبي سفيان أخت معاوية، وكانت مع زوجها، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام وغيرهما، وكان بعضهنّ يضربن وجوه الخيل إذا ولّت، ويصحن في وجوه المدبرين من الرجال: إلى أين يا حماة الإسلام وطلاب الشهادة؟. فكان لمنظر النساء وهنّ يقاتلن العدو بالسيوف والرماح، ويرددن الفارين بالعصي والصياح فعله العظيم في إثارة نخوة الرجال وتثبيت أقدامهم، كان القاصّ أبو سفيان لا ينفكّ يتنقل بين الصفوف فيحرضها على الثبات، ويحفزها إلى الكرّ، ومن كلماته المؤثرة في نفوس المجاهدين: اللّه اللّه، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهمّ إن هذا يوم من أيامك، اللهمّ أنزل نصرك على عبادك. وظل على ذلك حتى أصابه سهم في عينه أفقده إياها.

وكان للموقف المشرّف الذي وقفه البطل المغوار عكرمة بن أبي جهل الفضل الأكبر في إمالة كفّة الظفر، فإنه أخذ ينادي بين صفوف المجاهدين وقد بلغت الحماسة منه أشدها: قاتلت مع رسول اللّه ﷺ

في كل موضع وأفرّ اليوم؟ مَنْ يبايع على الموت؟ فبايعه أربعمائة من نخبة فرسان المسلمين وخيرتهم، وتقدمت هذه الفئة المستبسلة المتعاهدة على الثبات حتى الموت أمام فسطاط القائد العام، وأخذت تقاتل تحت رايته العدو المتكالب قتال المستميت، حتى قضى أكثرها شهيداً، وجرح الباقي وفيهم عكرمة وولده عمرو، ولقد احتضنهما خالد بن الوليد وجعل يمسح عن وجوههما، ويقطر في حلوقهما الماء، حتى توفيا رحمهم اللّٰه تعالى جميعاً.

غير أن هذه التضحية الكبرى لم تذهب سدى، فقد كان من نتائجها الباهرة أن ارتدت صفوف العدو على أعقابها، وحمل القلب حملةً واحدةً على فرق العدو المتراجعة، حتى ألقاها في منخفضات وادي اليرموك، وحال بذلك بين الخيل والرجل، فأخذ الخيّالة يلتمسون لأنفسهم مخرجاً، ويتحرّون لهم مهرباً، فلم يشأ المجاهدون إحراجهم فأفرجوا لهم، وتركوهم يهيمون على وجوههم في طول البلاد وعرضها. ثم تقدم الجيش العربي صفّاً واحداً نحو الخنادق التي لاذ بها مشاة الروم، وأخذ يعمل السيف فيهم، وكانت ملحمة دامية عظمى سالت فيها الدماء الغزيرة تسقي وادي اليرموك، إلى أن مالت الشمس إلى غروبها، ودبّ الذعر والفوضى في صفوف الجيش الروماني، وقنط قواده من النصر، وعمّت فيه الهزيمة، فمن نجا من القتل في الخنادق هلك بعد انهزامه في هوّة الواقوصة التي كان يلتمس الخلاص من طريقها الوحيد. ومما زاد في أسباب هلاكهم في الواقوصة اقتران كل عشرة منهم بحبل أو سلسلة، وكانت هذه الأصول من جملة التدابير التي اتخذها القائد الروماني في محاربة اليرموك بقصد الثبات المطلق في موضع الدفاع، ومنع الجنود من الفرار، وكانت هذه القاعدة مرعية عند الرومانيين والفرس في أكثر الحروب، ولقد شهدوا الجمّ من فوائدها من

قبل، وأما في هذه المعركة فقد كانت وبالاً على الجيش الروماني، إذ كان الجندي الواحد إذا ألقى بنفسه في منحدر الواقوصة، وهو المخرج الوحيد له من ساحة القتال اجتذب إليه التسعة المسلسلين معه، فنتج عن ذلك الهلاك الذريع، ولقد أعان على ذلك ما غشي أبصارهم من ظلمة الليل، وأفئدتهم من ظلمة الذعر الذاهب بالألباب.

ولما حلّت الهزيمة الشنعاء بالجيش الروماني، ولم يبق للقواد من سيطرة على الجنود الفارّين، وأصبحوا بين أمرين لا ثالث لهما: إما الموت، وإما الأَسر أذلاء، فضّلوا الأولى على الثانية، ديدن الطبقة الشريفة من الرومانيين في حروبهم، ولكيلا يبصروا ما نزل بجيشهم من النكبة الأليمة وما سيحلّ بهم من سوء المصير أخذوا يجلّلون وجوههم بأطراف برانسهم مستقبلين سيوف العرب تفصل هاماتهم بكل صبر وثبات، وما كاد يسفر صبح تلك الليلة الدهماء حتى كان جيش المسلمين قد استولى على جميع مواضع العدو الذي هلك معظمه وتقهقرت فلوله نحو دمشق. ويقدّر المؤرخون قتلى الجيش الروماني في تلك المعركة بمائة وخمسين ألفاً أو أكثر. وشهداء الجيش العربي بثلاثة آلاف أو زُهائها، وكانت هذه الوقعة الكبرى في ١٢ رجب سنة ١٣ الموافق لـ ١١ أيلول وسنة ٦٣٤ م.

وقبل أن نختتم هذه المحاضرة نرى من المناسب تدقيق بعض صفحات هذه المحاربة من الوجهة الفنية الحربية لأنها كانت أولى المعارك العظمى التي خاض غمارها الجيش العربي الحديث، في مطلع النهضة العربية الإسلامية، تُجاه جيشٍ منظم، عريق في ممارسة الحروب، ضليع بأدق فنونها، مما يجعل للظفر فيها قيمة عظيمة، بالنظر لضآلة عدد الجيش الظافر، وحديث عهده بأصول الحرب النظامية، فضلاً عن أنه اقتبس هذه الأصول من تشكيلات خصمه أثناء المحاربة

حينما وقف معه وجهاً لوجه، وليس في زمن السلم حيث يكون لديه الوقت المتسع لتدريب قطعاته على الأصول الجديدة المقتبسة، كما هي العادة في جيوش الأزمنة المتأخرة، لذلك نقول:

إن أول ما يلفت النظر في هذه المحاربة الترتيبات التعرضية التي اتخذها قائد الجيش العربي العام خالد بن الوليد رضي اللّٰه عنه تجاه جيش خصمه الكبير، وهي تتلخص بأمرين: هجومه عليه من جبهته، وإحاطته به من جناحه الأيسر، ولا ريب في أنها خُطة حربية صائبة بالنظر لموضع الرومانيين وتعبئتهم في ما وراء وادي اليرموك، وكان من جرّاء حركة الإحاطة التي أدارها عمرو بن العاص بمهارة كبيرة، أن اضطر الجيش الروماني إلى الخروج من خنادقه، والمحاربة في سهل الوادي، مما أفقده مناعة موضعه الدفاعي وصيانة جيشه، وكان لذلك معظم الأثر في تحويل غلبة الجيش الروماني إلى هزيمة شنعاء، ومن الحركات الجديرة بالذكر أيضاً في هذه المعركة، إحداث الجيش العربي فَرجةً متسعةً لخيالة العدو في صفوفه تهرب منها عندما انفصلت هذه الخيالة عن مُشَاتها بسبب الحركة الهجومية التي قام بها قلب الجيش العربي في أشدّ أدوار القتال.

ومن الملحوظ أن يتبادر إلى الذهن أنه كان من الأنسب الأوفق لقواعد الحرب أن لا يسمح لهذه الخيّالة بالهرب، بل يُحمل عليها لإبادتها أو أسرها بدلاً من الإفراج لها وتركها تذهب وشأنها. وقد حدثت في الحرب العامة الأخيرة حركةٌ إفراجية مماثلة لهذه الحركة، ولعلّ السبب الباعث على الحركتين واحد مع تطاول العهد وتطور أصول الحرب تطوراً يكاد يكون غير قابل للقياس مع ما سبقه. وإتماماً للفائدة وزيادةً في تقدير مهارة قائد الجيش العربي ودربته الحربية في ذلك الزمن، رأينا من المناسب ذكر هذه الحركة الإفراجية التي حدثت في

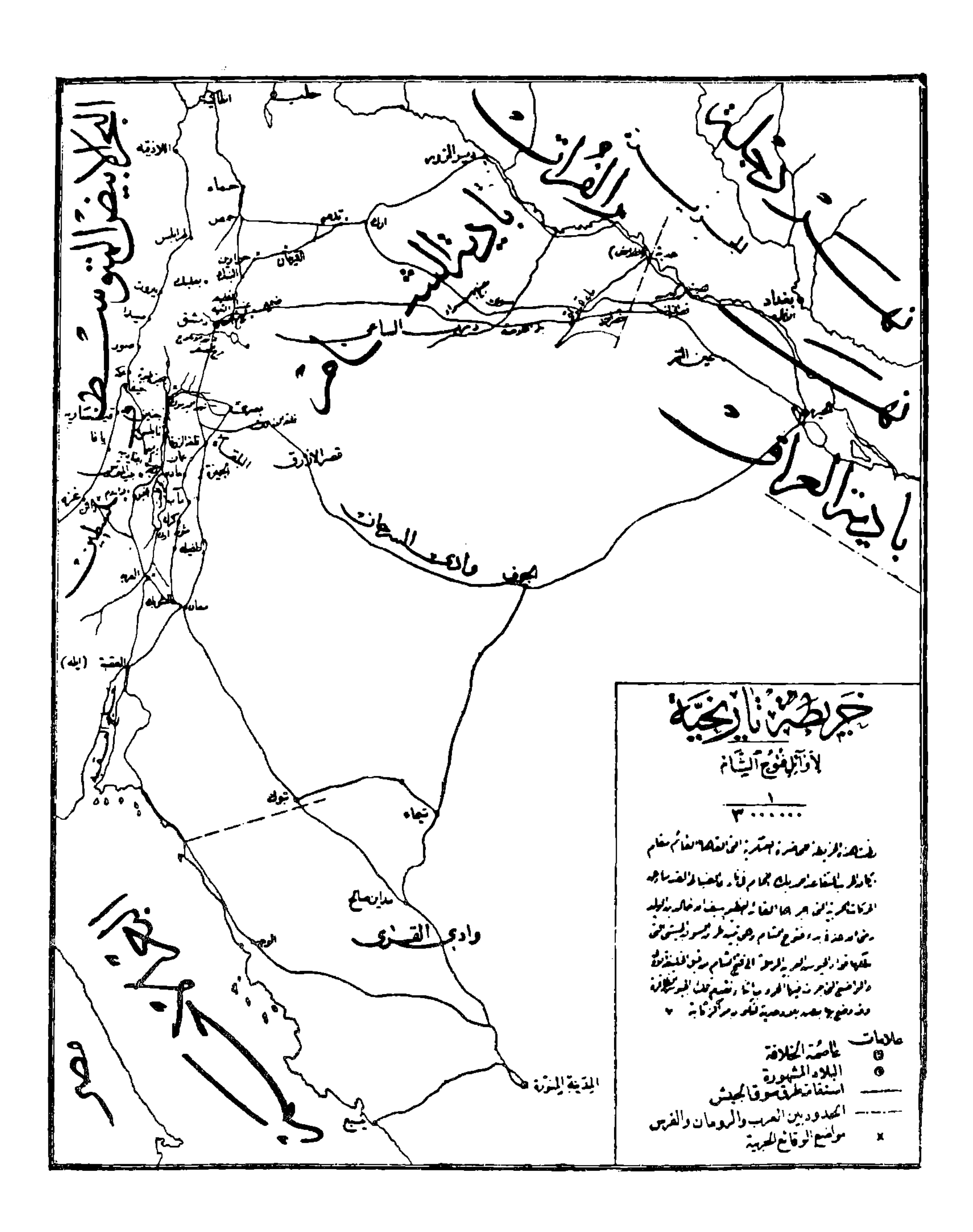
الحرب الكونية الأخيرة على مقربة من اليرموك محل الحادثة الأولى.

في شهر أيار من عام ١٩١٨ ميلادية استولت فرقة خيّالة للجيش الإنكليزي في جبهة فلسطين على موقع الصلت عَنوةً وطردت الحامية التركية منه، ولما كان هذا الموقع شديد التأثير على جبهة الحرب التركية بأسرها قرر قائد جبهة فلسطين التركية، وهو الجنرال الألماني المعروف فون ساندرس ليمان باشا أن يسترده فوراً مهما كلفه الأمر. فأوعز إلى الجيش الرابع وإلى فرقة الخيالة الثالثة في مهاجمة الصلت وأشرف هو على حركة الهجوم، وبدلاً من أن يجعل نقطة الهجوم الأصلي جناح الفرقة الإنكليزية وخلفها ليحيط بها ويأسرها كلها اكتفى بتوجيه الهجوم عليها من الشمال، مستهدفاً جبهتها فقط، وخالف بذلك رأي أركان حربيته التي كانت لا تنفك ترجو منه تطويق الفرقة الإنكليزية من جناحها الأيسر، وقطع خط رجعتها عليها، وحجة القائد الألماني في ذلك أن القطعات التركية كانت تعبةً جدّاً منهوكة القوى إلى حدٍّ يخشى معه أن لا تقوى على ردّ حملات الفرقة الإنكليزية العنيفة التي ستضطر إليها هذه الفرقة عندما تصبح مهددةً بالأسر، عرضةً لنقمة الترك وغضبهم، لا سيما وإن العناد في الثبات مشهور عن العرق السكسوني في المواقف الحرجة، فلهذه الأسباب لم يشأ القائد الألماني إحراج الفرقة الإنكليزية ففرج لها وتركها تذهب بالسلامة من حيث أتت.

وهكذا قلّد القائد الألماني في القرن العشرين حركة القائد العربي في القرن السابع. وحروب السلف كما تعلمون دروس للخلف. ولقد روي عن المارشال الألماني غولتس باشا أنه قال في القائد العربي خالد بن الوليد: إنه أستاذي الأكبر في فن الحرب. فرحمك اللّه تعالى ورضي عنك يا ابن الوليد، يا مَن كنت نابغةً من نوابغ الحرب في حياتك وغدوت مفخرةً من مفاخر العرب الخالدة بعد مماتك.

هنا وعلى الشكل السالف الذكر تنتهي محاربة اليرموك الشهيرة التي مهدت للعرب أن يُجلوا أقوى محتلٍّ استعمر بلادهم عدة قرون. فالعرب مدينون برسوخ أقدامهم في هذه البلاد وإقامتهم أعظم دولة عربية فيها. إلى ظفر اليرموك أولاً، وإلى قائده الأعظم خالد بن الوليد ثانياً وأخيراً.

رضي اللّه عنه وأثابه خيراً...


خريطة تاريخية
لاوائل فتوح الشام
١
٣٠٠٠٠٠٠
علامات
عاصمة الخلافة
البلاد المشهورة
استقامة طرق سوق الجيش
الحدود بين العرب والروم والفرس
مواضع الوقائع الحربية
البحر الابيض المتوسط
البحر الاحمر
بادية الشام
بادية العراق
نهر الفرات
نهر دجلة
وادي السرحان
وادي القرى
حلب
اللاذقية
حماه
حمص
تدمر
بيروت
صيدا
صور
دمشق
بصرى
بغداد
عين التمر
قصر الازرق
الجوف
العقبة (ايله)
تبوك
تيماء
مداين صالح
المدينة المنورة
ينبع
مصر

فهـــرس